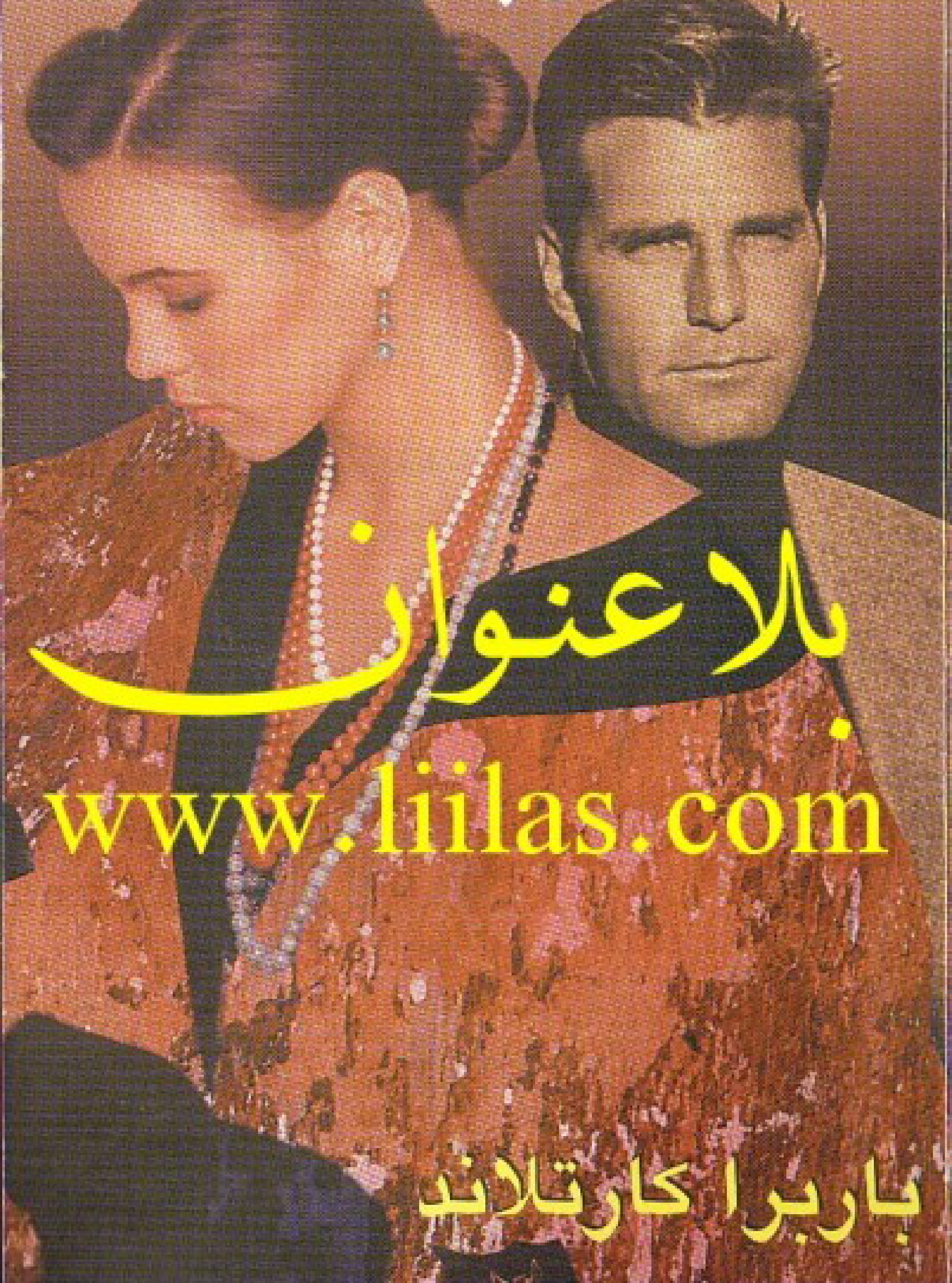
سلسلة كتاب الجيب

الهاربان

A - 107

أ – ١٠٧

Nahas Publishing House



باربرا كارتلاند

الفصل الأول

١٨٢٣

شعر الإيرل أوف كالفنديل بنور يشع في الغرفة.

كان نائماً، ولم يكن في ذلك أية غرابة، فقد كان مرهقاً للغاية.

وكان قد وصل إلى بيتها بعد رحلة طويلة متعبة من بيته.

وكان يأمل في أن يأوي وحده مبكراً إلى الفراش.

ولكنه أصيب بالذعر عندما اكتشف أنها تقيم حفلة منزلية صاخبة.

وكان في الحفلة شقيقاها اللذان كان الإيرل يعرف جيداً سمعتهما السيئة.

فقد كانا مديونين على الدوام.

كما أنهما كانا لا ينفكان عن التورط في فضيحة تلو الأخرى.

وما أن انتهى العشاء، حتى كان قد أدرك أنه أخطأ في قبول دعوة اللايدي إيموجين.

لقد كانت الدعوات تتوالى عليه نظراً لأهميته الاجتماعية لكونه عضواً في إحدى أعرق الأسر في البلاد، هذا عدا عن ثرائه الفاحش.

كما أنه كان يستقبل بالترحيب في كل منزل في البلاد.

وبالنسبة إلى اللايدي إيموجين، فقد وجد نفسه هو الطريدة وليس الصياد.

ولا شك في أن أجمل امرأة في عالم الجمال، لا بد أن تكون عرضة لصيادي الجمال الذين كانوا يتزاحمون حول الملك جورج الرابع، ما جعل تنافسهم عليها يزيد من غرورها.

وعلى كل حال، فقد اعجبها في المدة الأخيرة، ثم أخذت ترصده، حتى انه أحياناً، كان يرى نفسه غزالاً طريداً أو ثعلباً هارباً.

ولكن اللايدي إيموجين كانت، في نفس الوقت تثير فضوله.

فقد كانت بالغة الظرف، خارجة عن الأدب وقواعد السلوك، ومستعدة حتى للسخرية من نفسها إذا كان في ذلك ما يثير التسلية لدى الحاضرين.

ولكنه كان دوماً محافظاً متعقلاً في شؤونه الحياتية.

فقد كان يكره أن يصبح هدفاً لرسامي الكاريكاتور كما كان الملك نفسه منذ كان ولياً للعهد.

كما أنه كان يحاول جهده لإبعاد اسمه عن ثرثرة الألسن في المجتمعات.

ولكن هذا كان بالنسبة إليه محالاً، فقد كان بالغ الوسامة تتمناه كل امرأة، إما زوجاً، وإما صهراً.

وكان قد وصل إلى منزل إيموجين الصيفي في أحدث عربة سفر لديه والتي كان يجرها أربعة جياد مطهمة.

وكانت جياده دوماً موضع حسد من قبل كل صاحب جياد في البلاد.

كان أحد الإغراءات التي وضعتها إيموجين ليحضر إلى منزلها، هو وعدها بإقامة سباق للحواجز.

وكان هذا شيئاً يمتعه على الدوام، وعلى الدوام كان هو الفائز الأول فيه.

وهكذا أرسل أمامه اثنين من أفضل جياد السباق لديه لكي يبدأ السباق بكل نشاط.

ولم يكن قد سبق له قط أن بات الليل في منزل إيموجين ذي تاورز، الذي كانت تعيش فيه مع زوجها قبل وفاته.

وكانت قد تزوجت وهي في السابعة عشرة من عمرها.

ولكن اختيارها كان وقع، لسوء الحظ، على ريتشارد باسيت رغم أنه كان، بصفته الإبن الثالث في أسرته، قليل الحظ من المال.

وكان هو قد وقع في غرامها من أول نظرة، وحيث أنه كان بالغ الوسامة في بذلته العسكرية، فقد وقعت في غرامه هي الأخرى.

وهددت أسرتها بأنها ستهرب معه إذا لم يوافقوا على زواجها منه.

وهكذا وافق أبوها، وهو الدوق أوف بريدون، مكرهاً على هذا الزواج.

ولكن هذا الزواج قد انتهى، عندما قتل زوجها في مبارزة دفاع عن شرفه، وذلك بعد أن رفض بعناد وصلابة، التصديق بأن زوجته غير صالحة.

وهكذا دعا للمبارزة ذلك الرجل الذي كان يتباهى علناً بأنه هو من نشر هذه الشائعة.

وعلى كل حال، فقد أصيب بطعنة قاتلة في قلبه رغم أن هذه النتيجة لم تكن عادية في مثل هذه المبارزات.

وكان على المنتصر أن يهرب من البلاد لثلاث سنوات على الأقل.

وهكذا أصبحت إيموجين، وهي في قمة جمالها، حرة طليقة.

وأعطاها أبوها من المال ما يكفي لتشتري منزلاً في لندن.

وعندما أصبحت في السابعة والعشرين أخذت تفكر في أن الوقت قد حان للتفكير في تأمين مستقبلها.

فقد كانت من الذكاء بحيث أدركت أن الجمال، مهما كان متألقاً، لن يدوم إلى أمد طويل.

وإذا هي لم تكن حذرة، فسرعان ما سيمر قطار العمر وتبقى وحيدة.

وعندما قابلت الايرل أوف كالفنديل لأول مرة، أدركت أنه هو بالضبط من تريد.

وكانت طبعاً، قد سمعت به من قبل، إذ من الصعب أن تكون جزءاً من عالم الجمال دون أن تعلم عن نجاحه المستمر في سباق الخيل.

كان الايرل يفكر، بأن الأمور بينهما قد زادت عن حدها، وكلما أسرع بالانسحاب، كان ذلك أفضل.

ولكنه وجد من الصعب التخلص منها.

وكان قد وعدها مرة، وكان ذلك بشكل عفوي، بأنه

سيزور منزلها ذي تاورز ذات يوم للإشتراك في سباق الحواجز.

وكانت إيموجين قد أكدت له بأن السباق هو أحد مطالب المنطقة بأجمعها.

قالت له: «في آخر سباق أقمته، لم يستطع نصف الفرسان إكمال الشوط. ولكنني أعلم أنك، عندما تفوز بالكأس الفضية التي سأقدمها إلى الفائز، ستجعلهم يدركون أي نوع من الفرسان هم.»

ولكن الماركيز رأى في قولها هذا تعميماً سطحياً نوعاً ما.

فقد كان يعلم أن اثنين من أصدقائه، وهما سيشتركان في السباق، كانا من الفرسان الممتازين.

وهكذا ترك لندن في الصباح الباكر، بعد أن كان أرسل ثلاثة مجموعات من الجياد لتغيير جياد عربته أثناء الرحلة، وذلك قبل يومين من شروعه بها.

وبقيادة خبير في الطرقات، أمكنه ان يصل إلى المنزل ذي تاورز وذلك قبل موعد العشاء بنصف ساعة.

ولكنه كان مرهقاً تماماً رغم عدم رغبته في الإعتراف بذلك.

كان مرهقاً من الناحيتين العقلية والجسدية، وكان تركيزه على القيادة، ليس فقط في الطرق الرئيسية، وإنما أيضاً في الطرق الضيقة الملتوية، كان هذا قد اكسبه إعجاب سائسه المرافق له، والذي هتف قائلاً عند وصولهما إلى المنزل المقصود: «ما كان بإمكان أحد سواك، يا سيدي، أن يقوم بهذا.»

ومن شدة تعبه تمنى قبل العشاء، ألا تطول بهم السهرة، ولكنه لم يدع أحداً يدرك ذلك.

وعندما أوى إلى فراشه في النهاية، غاص بين الوسائد منهكاً وهو يحدث نفسه بأن عليه أن يرقد على الفور إذا كان يريد أن يكون عند بداية السباق في الغد، مستجمعاً كامل نشاطه وحيويته.

وعندما أغمض عينيه، خطر في باله أنه لم يعلم الكثير، أثناء السهرة، عن ذلك السباق.

حتى انه لم يعرف في أية ساعة سيبدأ، والآن، وهو يستعرض كل ما حدث أثناء السهرة، بدا له وكأن كل شخص كان يتعمد الإحجام عن الحديث عما سيكون غدا صباحاً.

وتساءل عما إذا كانت إيموجين تقوم بإحدى حيلها.

ربما قررت ابتكار نوع آخر من سباق الحواجز يختلف عن ذلك الذي كانت تجريه من قبل.

فبإمكانها أن تصرّ على ربط أعين المتسابقين مثلاً، أو لا تسمح لهم سوى باستعمال ذراع واحدة.

وحدث نفسه قائلاً: «إذا كان ذلك ما تفكر فيه، فلن اقبل بالإشتراك في السباق ذاك.»

وعند ذلك، سمع الباب يفتح، وتدخل منه إيموجين،

فقد كانت تطارده دون هوادة.

ولكن لم يحدث قط، قبل هذه اللحظة، أن جاءت إلى غرفته.

أما الآن، فها هي ذي تدخل إلى غرفته وفي يدها شمعة.

فهتف بها: «إيموجين، لماذا أنت هنا؟»

فاطلقت ضحكة رنانة وأجابت: «لا بد أن هذا واضح، يا دارول.»

ووضعت الشمعة على المنضدة بجانب السرير، ثم وقفت تنظر إليه.

فقال الإيرل: «كانت الرحلة طويلة مجهدة، وبما أنني أنوي الفوز في السباق الذي تقيمينه، فأنا أريد أن أحظى ببعض النوم.»

فقالت بنعومة: «إن أمامك وقتاً كافياً. وأنا اريد ان اتكلم معك... لن يكون بك حاجة إلى الإسراع في النهوض من فراشك عند الصباح لأن زواجنا لن يتم قبل الظهر.»

فحبس الإيرل أنفاسه.

وظن نفسه لم يسمع جيداً، «ماذا... ماذا قلت؟»

فاجابت: «إن بالإمكان تاجيل السباق. لأنني، بدلاً منه، قد تدبرت أمر عقد زواجنا، كما أن أصدقاءنا في غاية الحماس لهذه الفكرة.»

فلمع في ذهن الإيرل أن هذا هو السبب في نظراتهم الغريبة تلك إليه.

وفي أنه وجد صعوبة في جرهم إلى الحديث عن السباق.

فقال لها: «لا بد أنني في غاية الغباء إذ لا أفهم ما تقولينه، يا إيموجين. فقد طالما أوضحت لك أن ليس في نيتي الزواج من أيّ امرأة إلا بعد زمن طويل.»

فقالت بإصرار: «بل أنت ستتزوجني. وأنا أعلم أننا سنكون سعداء جداً.»

فقال بحزم: «عندما أتزوج، فأنا الذي

سأعرض الزواج وأقوم بتدابيري المختصة بذلك.»

فأجابت: «وهذا ما كنت أريدك أن تقوم به. ولكنك لم ترغب، في أن تنطق بهذه الكلمات التي كنت أنتظر سماعها. وهكذا قررت أن أسرع بالأمر قليلاً.»

فقال: «إنني آسف إذ أخيب أملك، ولكن، بما أنك قمت بعرض الزواج علي، فإن جوابي لك هو كلا.»

فأطلقت إيموجين ضحكة قصيرة: «هل خطر ببالك حقاً بأنني سأقبل كلمة كلا هذه جواباً؟»

أجاب: «أنا لا أود الزواج منك، يا إيموجين.»

فقالت: «إنك تخطىء بذلك لأن كل شيء قد أصبح جاهزاً، وإذا كنت تحب الإقناع لكي تجتاز الممر نحو رجل الدين، فإن شقيقي كفيلان بإقناعك.»

كان ذلك تهديداً واضحاً، أدرك الإيرل معه ما يعنيه تماماً.

فقد كان يسر شقيقيها جداً أن يكون لهما صهر يدفع عنهما ديونهما تجنباً للفضيحة.

ولم يتصور شيئاً أكثر إذلالاً من أن يسير نحو رجل الدين بين أخويها على الجانبين.

وقالت له برقة: «كفى محاولة التفكير في الهرب مما لا مناص منه، وكما سبق وأخبرتك، سنكون في غاية السعادة، وسأستمتع بلقب الكونتيس أوف كالفنديل كما لم أستمتع بشيء في حياتي من قبل.»

وعندما انتهت من كلامها، وقفت لحظة تنظر إليه.

كان يحملق فيها وكأنه لا يصدق أنها حقيقة.

ثم اتجهت سائرة نحو الباب وهي تقول: «تصبح على خير. وستعلم أنني قد أقفلت عليك الباب لكيلا تحاول الهرب، وأعدك بأن أبدو عروساً في غاية الجمال.»

وعندما تركت الغرفة، سمع المفتاح يدور في القفل من الخارج.

ومضت لحظة كان مستحيلاً عليه أن يحرك ساكناً.

ولكنه ما لبث أن حدث نفسه بأن عليه أن ينجو من هذا الشرك الذي وقع فيه، رغم أنه لم يكن يعرف الطريقة لذلك، وقد كان شركاً بالغ الإحكام حقاً.

وكان لاحظ أن بين المدعوين اثنين من ممتهني الثرثرة ممن كانوا يعرفون حياكة القصص.

وكان ثمة أيضاً محام لامع ومعروف جداً، وقد كان هناك ليضمن توقيعه على وثيقة الزواج، والذي سيؤمن حياة إيموجين إلى النهاية سواء عاشا معاً أم منفصلين.

وهتف ثائراً: «إنها قد فكرت في كل شيء.»

ونهض من فراشه ليسير نحو الباب الذي وجده مصنوعاً من خشب السنديان والذي من المستحيل تحطيمه ليفتحه دون مطرقة.

وعندما ذهب إلى النافذة، أدرك السبب الذي جعلهم يخصصون له هذه الغرفة.

لقد كانت إلى الجهة الغربية من المنزل وليس لها شرفة تطل على الحديقة.

فإذا هو حاول الهرب بهذه الطريقة، فهذا يعني أنه لن يمكنه تجنب كسر في ساقه أو ربما ما هو أسوأ.

ولم يكن هناك غرفة ملحقة للملابس، كما كانت مدخنة المدفأة أضيق من أن يستطيع أن ينفذ منها متسلقاً.

ولكنه أقسم على أن لا يستسلم للهزيمة، وبسرعة، إرتدى ملابس الركوب.

نظر أولاً في أنحاء الغرفة، ثم جذب ملاءات السرير، ولكن لم يكن هناك سوى ملاءتين فقط.

فنظر إلى الستائر، ووجد أنها غير مصنوعة من القطيفة وإنما من حرير لين.

وهكذا أنزلها ثم ربطها بالملاءتين بعقد متينة كان أبوه قد علمه القيام بها عندما كان صبياً.

ولكن الحبل الذي صنعه لم يكن ذا طول كافٍ مما أرغمه على إضافة البطانية إليه، وكان هناك، لحسن الحظ أربع منها، وعندما اطمأن الآن إلى أن الحبل قد أصبح من الطول بحيث يوصله إلى الأرض سالماً، ربط الملاءة إلى أحد قوائم السرير الأربع.

فتح النافذة على اتساعها، ورأى أن النجوم قد ابتدأت بالإختفاء.

وكان ذلك يعني قرب انبلاج الفجر، والذي سرعان ما يتلوه أول خيوط الضياء في الأفق.

وحين ألقى الحبل، الذي صنعه، من النافذة أدرك أنه لم يكن مخطئاً في ظنه بأنه سيحقق غرضه.

وضع ربطة عنقه، وكذلك سترة الركوب، ثم حشا جيوبه بكل النقود التي كان أحضرها معه.

وتمنى ألا يخذل في محاولته النجاة هذه وإلا فسيصل إلى الأرض محطم الجسم.

وغلب عليه الظن أن تحت النافذة مباشرة كان يوجد مساكب للأزهار رغم أنه لم يكن واثقاً من ذلك نظراً للظلمة السابغة.

وتملكه الرجاء في أن لا يكون مخطئاً في ظنه هذا واستدار يجيل النظر في الغرفة.

وعند ذلك، أرسلت الشمعة الموجودة بجانب السرير آخر ومضة، ليسود بعدها الظلام ولوى هو شفتيه قليلاً، وهو يرجو أن لا يكون ذلك نذير شؤم قد يصيبه.

وللتأكد من ذلك، أخذ يمتحن ملاءة السرير المعقودة حول قائمة السرير ليتأكد من احكامها.

وببطء، هبط من النافذة على الجدار الجانبي للمنزل.

وكان والده، لحسن الحظ، قد علمه تسلق الجبال عندما كان صبياً حيث اعتاد ذلك في وايلز عندما مكثا، هو وأبوه، فترة عند أقرباء لهما.

وكان السرور يتملكه عندما كان يصل إلى قمة الجبل ولطالما فكر في أنه، إذا ما وجد الوقت، سيقوم برحلة يزور فيها سويسرا ليتسلق جبال الألب.

وهذا ما لم يقم به حتى الآن.

ولكنه ما زال يتذكر كيفية استعمال الحبل وكيف يثبت قدميه على جدار المنزل المصنوع من الآجر.

وعندما انتهى الحبل، كان عليه أن يقفز مسافة الست أقدام تقريباً.

وعندما أصبح فوق الأرض، شعر بالإرتياح لصدق ظنه في وجود مساكب زهور تحت النافذة، ثم وبأسرع ما يستطيع ودون أية ضجة، هرع إلى الإصطبل.

وهناك لم يكن سوى سائس فتيّ قد غلب عليه النعاس وذلك في القسم الرئيسي حيث كانت جياده موجودة.

وتملكت السائس الدهشة عندما قال له الإيرل: «يبدو انني قد بكرت قليلاً، ولكن حيث انني لم أستطع النوم، أحب أن أذهب في نزهة على ظهر احد جيادي.»

فتبعه السائس إلى حيث انتقل إلى المربط الذي كان فيه حصانه الفحل، والذي كان يعدة للفوز في سباق الحواجز.

فقد كان يرى أنه هو بالضبط الذي عليه أن يمتطيه للهرب.

وحيث أن الفتى كان ما يزال تحت تاثير النوم، فقد ساعده الإيرل على إسراج الحصان جوبيتر، ثم قال: «إنني الإيرل أوف كالفنديل. أخبر كبير السائسين لديّ عندما يستيقظ من النوم أن يعيد عربة سفري وجيادي إلى البيت على الفور.»

وكرر الرسالة إلى أن تأكد من أن الفتى قد فهمها، عند ذلك منحه جنيهاً ذهبياً شهق الفتى لمرآه، هذا بينما كان الإيرل يقود حصانه إلى الفناء حيث امتطاه بسرعة خائفاً، إذا هو لم يسرع، من أن تفكر إيموجين بخطة تمنعه من الإبتعاد.

وقد ترسل خلفه أخويها أو الخدم.

وابتعد في اتجاه لا يستطيع أن يراه فيه أحد من المنزل، وهو يحدث نفسه بأنه استطاع أن يروغ منها.

ولكنه كان يدرك أن عليه أن يجتاز أميالاً كثيرة قبل أن يتمكن من الشعور بالأمان.

ذلك أنه أصبح يعلم الآن أن وراء جمال إيموجين إرادة من حديد تجعلها تتشبث به.

لقد قررت أن تتزوجه، وهذا معناه أن ليس هناك شيئاً تعتبره وضيعاً، أو دنيئاً، أو غير مقبول ما دام يساعدها على أن تصبح زوجته.

وحدث نفسه وهو يصل إلى أرض سهلة خفف فيها من سرعة جواده جوبيتر، بأن عليه أن يتصرف بحكمة.

كان ينوي العودة إلى منزله في كيلفين والتي كان الطريق إليها طويلاً صعباً عبر البلاد.

كانت مقاطعة كيلفين تحتوي على أفخر منازل الأسلاف الموجودة في انكلترا.

وكانت المقاطعة في أيدي الأسرة منذ القرن الثاني عشر.

وقد أنشئت في نفس الوقت الذي نصّب فيه الإيرل أوف كالفنديل الأول.

وكان الإيرل شديد الفخر بنسبه هذا.

ولهذا لم يحدث قط حتى في اكثر أحلامه طيشاً، أن خطر بباله أن يضع إيموجين في مكان والدته بصفتها الكونتيس أوف كالفنديل، فقد كان شديد الولع بأمه التي كانت توفيت أثناء دراسته في اكسفورد.

وما زال حتى الآن يتألم لفقدها، فقد كانت تحتل مكاناً خاصاً في قلبه رغم أنه لم يكن يتحدث عن ذلك مطلقاً.

وكان يفكر، على نحو غامض، بأن ذلك المكان ستحتله، يوماً ما، زوجته.

ولهذا لم يكن يتصور أن تحتل إمرأة لا ميزة لها، عدا عن أنها قليلة التهذيب من نواح كثيرة.

وأخذ الآن يسأل نفسه: كيف أمكن أن اكون من الغباء بحيث لم أدرك أنها، بصفتها أرملة، سترغب في الزواج مني.

وأخذت الإيرل يتذكر أقوالاً لإيموجين في مناسبات عديدة، كان عليها أن تلفت نظره إلى الشرك الذي كانت تنصبه له والذي سار إليه بسذاجة لم يصدقها في نفسه.

وعاهد نفسه بأن هذا شيء لا ينبغي له أن يتكرر.

ولكن، في نفس الوقت، كان يعلم أنه ما زال عليه أن يكون على حذر لئلا تظفر به مرة أخرى.

كان جوبيتر، دون شك، أسرع من كل الجياد التي تملكها إيموجين.

ولكنه كان يعلم بأن هناك شخصين في الحفلة قد يمكنهما أن يدركاه.

هذا إلى السائسين، المعروفين بطبيعة الحال، بفروسيتهم الممتازة، والذين بامكانهم استعارة جياد بقية المدعوين الذين كانوا أحضروها معهم للسباق.

وتمتم بشيء من الهزل: لم يخطر ببالي قط أن ما كانوا يخططون له ليس سباق حواجز وإنما رحلة صيد لاقتناص طريدة كانت تتمثل فيه هو.

وجعلته هذه الفكرة يهمز جواده ليحثه على الإسراع.

وعندما انتصف النهار، أخذ يتساءل عما إذا كان يجرؤ على دخول أي من الخانات المحلية.

فقد كان الخطر يكمن في أنهم، في الخان، قد يحقق معهم فيما بعد، فيدلي هؤلاء بأوصافه.

ولكنه ما لبث أن حدث نفسه بأن هذه مجازفة لا بد له من الإقدام عليها.

وهكذا توقف عند القرية التالية، والتي كانت صغيرة لا تحوي سوى عدة أكواخ ذات أسطح من القش، وخان ذي لونين أبيض وأسود، وكان هذا يقع في مروج القرية الخضراء كما كان يسرح حوله بعض الماشية.

وبدا أن لا أحد في تلك النواحي.

ودخل الإيرل بجوبيتر إلى فناء صغير حيث كان هناك اصطبل صغير خالٍ.

أدخل الجواد إليه حيث وجد بعض العلف، ثم ملأ له دلواً من الماء من مضخة كانت هناك.

وما لبث أن دخل الخان حيث وجد رجلاً عجوزاً نظر إليه مستفهماً بعينين ظن الإيرل أنهما فاقدتان لقوة الإبصار تقريباً.

وعندما طلب طعاماً يأكله، أخبره الرجل أن ليس هناك سوى لحوم باردة وجبن.

وأجاب هو بسرعة أن هذا كل ما يحتاجه. ثم تناول طعامه بسرعة.

وعندما دفع الحساب، سأل الرجل العجوز عن المكان الذي هو فيه.

واستغرق فهمه لما قاله الرجل، بعض الوقت، ولكنه علم بأنه في الإتجاه الصحيح نحو بيته.

ثم غادر الخان ممتطياً صهوة جوبيتر والذي كان يبدو عليه أنه استمتع بفترة الراحة هذه، وبعد ذلك بثلاث ساعات، حدث نفسه بأنه تاه عن الطريق الصحيح. وأن عليه أن يسأل أول شخص يراه، عن ذلك.

وحيث أنه جعل طريقه من خلال الحقول، متجنباً الطرق الرئيسية إلا عند عبورها، لم يكن يرى سوى القليل من المشاة.

ورأى أن عليه أن يسرع، إذا كان يريد أن يصل إلى بيته قبل حلول الظلام.

كان يعبر حقلاً أخضر كان في آخره بعض الأغنام.

وكان قد أصبح في منتصفه عندما وقعت عيناه على سياج مرتفع.

كان عليه أن يقفز من فوقه، هذا اذا لم يشأ أن يستدير إلى الخلف نحو بوابة كان واضحاً أنها المنفذ الوحيد في ذلك السياج.

ولم يكن القفز فوق السياج ليشكل أية مشكلة بالنسبة إلى جوبيتر.

وهكذا قفز به الإيرل فوق السياج ذاك، ولكن ما أن علا بشكل كبير فوقه، حتى أدرك الإيرل بذعر أنه كانت هناك حفرة عميقة في الناحية الأخرى، قد انتشر حولها عدد من الأحجار الضخمة.

وأدرك جوبيتر الخطر في نفس الوقت الذي أدركه فيه فارسه.

وهكذا ابتعد في قفزه قدر استطاعته، ولكنه لم يستطع تجنب التعثر بحافة الحفرة.

وكان أن سقط الإيرل على رأسه.

ووقف الحصان وهو يرتجف، ولكن الإيرل بقي ملقى على الأرض دون حراك.

الفصل الثاني

ارتجفت كاريتا، والجالسة في غرفة المكتبة، عندما وصل إلى مسامعها صوت عال آتياً من الردهة.

وعلمت أن زوج أمها قد عاد، ما جعلها تشعر، كالعادة، بقشعريرة تسري في جسمها.

ذلك أن زوج أمها، السير مورتيمر هالدون، قد أصبح منذ وفاة والدتها، أكثر عدوانية وتسلّطاً مما كانه من قبل.

لقد كرهته منذ اللحظة التي تزوج فيها أمها. ولكنها، في نفس الوقت، كانت تدرك السبب الذي جعل تلك المرأة الرقيقة الحسناء الحلوة، والضعيفة نوعاً ما، والتي هي أمها، تقبل مثل هذا الزوج.

فقد كان من المستحيل بالنسبة لماري وينسلي أن تعيش من دون رجل يرعاها.

لقد كانت اقترنت من زوجها الوسيم المتدفق حيوية وقوة، والذي اكتسح عواطفها، وذلك حين كانت صغيرة السن.

تزوجته، رغم إرادة أهلها، بعد شهر واحد فقط من تعارفهما.

أحد أسباب ذلك هو أن ريتشارد وينسلي كان ضابطاً في البحرية، وكان لا يعرف مطلقاً متى يتوجب على سفينته الإلتحاق بالأسطول أو متى يعود.

وخدمه الحظ إذ جعله يمضي العامين الأولين من زواجهما في وظيفة على الشاطىء في بورتسماوث.

ونظراً لمهارته البالغة بالنسبة لصغار رجال البحرية، ولتنظيمه الحسن، فقد بذل المسؤولون غاية جهدهم لابقائه موظفاً في البر.

وأخيراً، بعد عامين من انتهاء الحرب بالنصر، عاد ريتشارد إلى العمل في البحر.

وأرسل إلى الهند الغربية حيث لم يعد منها مطلقاً.

ومنذ ذلك الحين، انهارت زوجته.

ولم ينفع شيء قالته كاريتا أو فعلته في تخفيف ما تشعر به أمها من يأس وحزن لفقدانها الرجل الذي تحب.

وأدركت كاريتا أن أحد أسباب تعلق أمها بأبيها بذلك الشكل الغريب، هو أنها كانت تعتمد عليه في حياتها كلياً.

فقد كان ذا شخصية قوية ما جعلها تتمنى لو أنها ورثت عنه جزءاً منها.

كان يحب أن يكون السيد في منزله، ولكي يشعر بذلك أخذ يغدق حمايته وحبه على زوجته ما جعلها في غاية السعادة.

كانت مرت ستة أشهر على انقطاع أخباره، قبل أن يأتي إلى انكلترا خبر موته.

ولم يكن ذلك في معركة، وإنما من أحد الأمراض الإستوائية.

وبشكل غير متوقع، كانت هي وكاريتا ما زالتا تعيشان في ذلك المنزل المستأجر في بورتسماوث، إذا بالسير مورتيمر هالدون يظهر في حياتهما. ولم تستطع كاريتا، فيما بعد، أن تتذكر أين كان لقاؤهما معه.

ثم وبصورة مفاجئة، بدأ يملأ ذلك المنزل الصغير بوجوده الكاسح.

ولتسلطه القاهر، مالت ماري وينسلي إليه وكأنه الدواء الذي شفاها من تعاستها.

وكانت كاريتا، في ذلك الحين، في الخامسة عشرة من عمرها. وبدا لها السير مورتيمر مختلفاً عن أبيها في كل شيء. وكانت شديدة الحب لأبيها.

وهكذا انكمشت مبتعدة عنه. ولاحظ هو مشاعرها تلك نحوه.

ما أن تزوج من أمها حتى أصبحت هي تمثل بالنسبة إليه تحدياً كان من الصعب عليه مقاومته.

حاول في البداية، كسب عطفها أو حتى عرفان الجميل على الأقل، وذلك بتقديم الهدايا الصغيرة والكلام المعسول.

واضطرت إلى الاعتراف بأنه كان كريماً نحو والدتها ويريد أن يكون كريماً نحوها هي أيضاً.

ولكن حدساً في أعماقها أنبأها بأنه غير ما كان يدعيه.

وأنه، في الحقيقة، رجل شرير.

ولم تستطع أن تفسر سبب هذا الشعور الذي انتابها، ومع ذلك فقد كان شعوراً ثابتاً.

ولم تطل أمها التفكير طويلاً قبل أن تتزوج السير مورتيمر. أو بالأحرى هو الذي جعلها تقرر ذلك، ومن ثم تغيرت الأمور بشكل مأساوي. فقد نقلهما السير مورتيمر من بورتسماوث إلى بيته الكبير القبيح الطراز في أوكسفوردشاير.

وما أن وصلوا إليه، حتى رأته كاريتا ذا شكل قبيح مثل صاحبه تماماً.

وفي الداخل كان مؤثثاً بإسراف وترف فوق العادة.

وبرّح بها الحنين إلى ذلك البيت الصغير المتداعي الذي عاشتا فيه مع أبيها.

كانت تدرك أن أمها إذا لم تكن مغرمة بزوجها الثاني بعنف، فقد كانت راضية. وحاولت أن تكون مسرورة لذلك.

لقد دللها وأغرق عليها وأحاطها بكل ما تشتهيه نفسها.

ملابس، فراء، مجوهرات... كل هذا أحضره إليها أكواماً.

لقد مثل السير مورتيمر دور الزوج المفتون ما خدع بذلك كل من جاء لزيارتهم.

كاريتا فقط هي التي شعرت بما تخلل صوته من تفاخر وهو يحدث أصدقاءه قائلاً: «إن زوجتي العزيزة هي ابنة اللورد موركوت وكانت متزوجة من الكابتن ريتشارد وينسلي، الذي توفي لسوء الحظ أثناء خدمته في البحرية الملكية.»

وكانت كاريتا تحدث نفسها ساخرة بأنه يذكر كل هذا للمباهاة.

وعندما كانت عيناها تتقابلان بعينيه، كان ينتابها شعور مزعج بأنه كان يستطيع قراءة أفكارها.

لقد حاولت، لأجل أمها، أن تكون مهذبة معه، وشاكرة لما كان يعطيها.

ولكنها كانت تعلم، على مرّ السنوات، أنه كان ينتظر منها أن تشعر بالمذلة أثناء تقديم شكرها له إذا ما أحضر لها، مثلاً، ثوباً جديداً.

وكانت أمها تقول لها أحياناً: «إن مورتيمر اخبرني بأنك لم تظهري شكرك لأجل معطف الفرو الذي أهداك إياه. لا أظنك يا حبيبتي غافلة عن مبلغ حنانه لك.»

«طبعاً يا أمي. وقد شكرته فعلاً.»

فكانت أمها تقول: «ليس بالحرارة الكافية، يا عزيزتي. أرجوك حاولي أن تريه أنك مسرورة بهديته.»

وكانت كاريتا تحاول ذلك، ولكنها كانت تدرك أن جميع هدايا زوج أمها لها كانت بسبب دوافع خفية.

كان يريد بها أن يؤلمها ويذلّها، بما في ذلك معطف الفرو، والذي أهداها إياه منذ فقدت هرّتها التي كانت رفيقتها على الدوام، وذلك عند قدومها إلى هذا المنزل.

كانت واثقة أنه تعمد أن تكون ألوان ذلك المعطف هي نفس ألوان هرتها المحبوبة.

قد يكون ذلك مجرد صدفة، ولكن أمثال هذا قد حدث أكثر من عشر مرات.

وكان هناك ثوب لها سيصل من لندن وكان أخضر اللون وهو اللون الذي كانت تتشاءم منه.

كما كان أبوها هو أيضاً يحس بشؤمه.

ومثل هذه الوخزات من زوج أمها كانت كثيرة.

وكانت تحاول إقناع نفسها بأنها أصبحت أكبر من أن تلاحظ مثل هذه الأشياء.

ومع ذلك فقد كانت موجودة.

ففي مناسبة رهيبة، وكانت في السادسة عشرة من عمرها، فقد السير مورتيمر أعصابه فضربها.

وكان في هذا إذلال لها لم تشأ أن تداوم التفكير فيه.

فكان أن ذهبت إلى أمها قائلة إنها تريد أن تترك هذا البيت على الفور.

ولكن أمها أخذتها بين ذراعيها متحدية زوجها لأول مرة، وذلك بأن قالت له بينها وبينه: «سأتركك.»

فسألها بخشونة: «ما هذا الذي تقولينه لي؟»

فأجابت: «إن كاريتا هي ابنة ريتشارد وليست ابنتك. ربما كانت صعبة القياد ككل الفتيات في هذا السن، ولكنني لا أريد أن يضربها أحد.»

كانت هذه هي المرة الأولى التي تواجهه فيها ماري.

وكان هو من الحكمة بحيث أحاطها بذراعيه وهو يعدها بأن هذا لن يتكرر مرة أخرى.

ثم ترك كاريتا وقد تملكتها، على كل حال، فكرة هي أنه لم يضربها عقاباً لها على ما فعلت، فقط، وإنما أيضاً لأنه كان يستمتع بذلك.

ومن تلك اللحظة أخذ يجرب كل الوسائل الممكنة لإخضاعها.

فهو يضحك ساخراً من كل شيء تقوله تقريباً. وعندما يصبح بإمكانه أن يسخر منها أمام أصدقائه في غياب أمها، فهو يفعل.

أما هي، فكانت تبذل جهدها للابتعاد عن طريقه.

ثم ابتدأت تفكر في أنه قد يكون من الأفضل أن تذهب للإقامة عند بعض أقرباء أمها. وإن يكن هذا الأمر من الصعوبة حيث أنها لم تكن قد رأت أحداً منهم منذ سنوات. ثم إنه أولاً، لم يكن أي منهم يقيم قرب بورتسماوث. وثانياً، عندما كانوا أحياناً، يكتبون إلى أمها، كانت واثقة من أنهم لم يكونوا راضين عن زواجها من السير مورتيمر.

وذات يوم، بعد أن حدث منه ما ينفرها منه بشكل خاص، كانت قد قالت لأمها:

«أليس من الأفضل يا أمي أن أسأل خالتي ما إذا كان بإمكاني الإقامة معها في يوركشاير؟ ربما إلى أن استغنى عن المربيات والمعلمات.»

فأطلقت أمها صرخة ذعر: «ولكنك تعلمين يا حبيبتي أن ليس بإمكاني فقدانك أو الابتعاد عنك.»

ومدت إليها ذراعيها وقد اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتابع قائلة: «إنك كل ما بقي لي من حبيبي ريتشارد. وعندما أنظر إليك فإنني أراه وكأنه يقف بجانبي، وبهذا أعلم أنني لم أفقده كلياً.»

وانهمرت دموع أمها، على وجنتيها. ومسحتها كاريتا وهي تعدها بأنها لن تتركها بتاتاً.

وإذا بأمها منذ ستة أشهر، تموت بشكل مفاجىء.

لم تكن صحتها أثناء فصل الشتاء، على ما يرام حيث أخذت تعاني من نزلات رئوية متتالية ما جعلها بالغة الإرهاق والإنهاك.

ولكنها أثناء حضور زوجها السير مورتيمر، كانت تحاول التظاهر بالحيوية والنشاط.

ولكن، حالما يخرج للركوب أو إذا كان على موعد مع أصدقائه، فإنها سرعان ما تنهار.

كانت تبقى مستلقية مغمضة العينين، غير نائمة، ولكن كأنما كانت تشعر بأنها قد انتقلت إلى عالم آخر.

وذات يوم، قال السير مورتيمر انه مدعوّ إلى حفلة عشاء يقيمها اللورد المحافظ لأهم الشخصيات في البلاد.

كان قد قال لزوجته: «إنها للرجال فقط، يا عزيزتي.» وكان يعني بذلك أنها لا تستطيع مرافقته.

وسمعت كاريتا أمها تقول له: «إني واثقة من أن الجميع سيسعدون بحضورك.»

كانت تتكلم بصوت رقيق يملؤه الإعجاب كما اعتادت دوماً حين كانت تخاطبه.

فقد كانت تعلم أن هذا يرضيه.

وبدا أنه انتفخ زهواً وهو يجيبها قائلاً: «لقد أعددت خطاباً ممتازاً، ضمنته بعض الاقتراحات بالنسبة للمستقبل وأنا واثق من أنه سيحظى بإعجاب اللورد المحافظ.»

فقالت زوجته: «إنني واثقة من ذلك.»

وعندما خرج، كان يبدو بديناً منتفخاً بالغرور

والغطرسة، مبالغاً في ملابسه في ثياب المساء، بينما أمها لا تستطيع الحراك من الإرهاق.

فقالت لها كاريتا: «سأتناول عشائي معك في غرفة نومك. إن من المتعب لك أن تهبطي إلى الطابق الأسفل.»

فتمتمت أمها: «سيكون هذا جميلاً يا عزيزتي.»

وعندما حضر العشاء، كان شهياً للغاية، ولكنها لم تشعر برغبة في الأكل.

وأدرك كاريتا القلق لمظهرها المتعب، فحاولت إقناعها بشرب بعض السوائل الحارة التي أعدتها لها، قائلة: «إنني واثقة من أنها ستفيدك يا أمي أكثر من تلك الأدوية السخيفة التي وصفها لك الطبيب.»

فقالت الأم: «إنها حقاً تجعلني أسوأ حالاً ولكنني لا أريد شيئاً في الحقيقة.»

ولكنها ما لبثت أن امتصت عدة رشفات.

وعندما أبعدت كاريتا الصينية، جلست إلى جانب أمها تأخذ يدها بين يديها.

«إنني قلقة لأجلك، يا أمي.»

فأجابت الأم: «ليس ثمة ما يدعو إلى القلق. لقد حلمت الليلة الماضية بأبيك، وكان قريباً جداً مني.»

فاشتدت أصابع كاريتا على أصابعها.

لقد كانت أمها تتحدث بطريقة لم تسمعها تتكلم بها من قبل.

كانت تتمتم قائلة: «حبيبي... ريتشارد... لشدّ ما افتقدته... لقد افتقدته... إلى درجة هائلة... وها هو ذا

قد أتى إليّ... الآن... وسنكون معاً... مرة أخرى...»

فشهقت كاريتا.

ودون أن تقول شيئاً، جثت على ركبتيها بجانب سرير أمها، بينما كانت هذه تقول: «آه يا ريتشارد... ريتشارد... ها إنك هنا... كم كنت تعسة حزينة... من دونك.»

كان في صوتها لهجة شاردة جديدة على مسامع كاريتا.

وكانت عيناها مفتوحتين كما كان يكسو وجهها إشراق باهر جعلها تبدو أصغر وأجمل مما رأتها كاريتا عليه منذ سنوات.

ومضت لحظة بدا وكان كل شيء قد توقف. ثم، إذا بعيني أمها تغمضان.

وأدركت كاريتا، قبل أن تلمسها، أن أمها قد ماتت... أو بالأحرى رحلت مع أبيها إلى حيث سيكونان معاً.

لم يكن ثمة شك في أن السير مورتيمر كان حزنه على زوجته صادقاً.

فقد كان، في الواقع، يحبها على طريقته الخاصة.

ولكن، لم يكن هناك ما يمكنه أن ينفّس به عنه حزنه ذاك، سوى كاريتا، فانفجر فيها صارخاً بغضب بالغ: «لماذا لم تخبرني بأن أمك كانت مريضة إلى هذا الحد؟ لا بد أنك كنت تعلمين... لا بد أنه كان لديك فكرة عن أنها كانت تموت.»

فردت عليه بحدة: «لم تكن لديّ هذه الفكرة على الإطلاق.

ولكن إذا كان موتها قد حان، فأظنها قد رحلت بالطريقة التي كانت تتمناها.»

ولم تقل إن طيف أباها قد جاء ليأخذ أمها. أو أن شهودها لنهاية أمها كان شيئاً لن تنساه في حياتها أبـداً.

وكان السير مورتيمر قد اشتبه في شيء من هذا النوع، فأخذ يوالي سؤالها مرة بعد مرة، ما الذي قالته أمها قبل أن تموت؟ ما الذي حدث؟ كيف ماتت وكيف توقف تنفسها نهائياً؟

سألها: «هل تكلمت؟ هل أتت على ذكري؟»

«كلا.»

فقال بغضب: «لا أصدق أن هذا صحيح.»

لم يحضر أحد من أقارب أمها، الجنازة، وكانت كاريتا قد كتبت إليهم تخبرهم عن موعد الدفن. ولكن، إما لأن الرحلة كانت طويلة، وإما، وذلك بالنسبة إلى بعض الأقرباء كبار السن، لأنهم لم يكونوا رأوا ماري منذ سنوات طويلة.

وبهذا، كان ما كتب في رسالة تعزية كافياً.

وكان من الطبيعي أن يصرّ السير مورتيمر على إقامة جنازة كبيرة مهيبة.

ولأنه كان على شيء من الأهمية في المقاطعة، فقد أقبل لحضور الجنازة عدد كبير من الناس الذين لا يكادون يعرفون زوجته.

كما حضرها أيضاً أصدقاؤه الذين كان يذهب برفقتهم إلى الصيد.

وكان من الطبيعي أن يعودوا جميعاً إلى مائدة الغداء العامرة التي أقامها لهم في منزله.

ولم تذهب كاريتا إلى غرفة الطعام، فقد كان فيها الكثير من المدعوين الذين يأكلون ويشربون. وكانت تسمع أصواتهم التي كانت تعلو شيئاً فشيئاً.

وعندما غادر الضيوف الغرفة أخيراً، تصاعدت ضجتهم عند الباب الأمامي.

ولو لم يرسل زوج أمها بطلبها، لبقيت في غرفتها.

وكانت نزلت إلى الطابق الأسفل وقد شحب وجهها وانتفخت أجفانها لكثرة بكائها بعد الجنازة.

قال لها بخشونة: «عليك أن تبقي بصحبتي فأنا لا أريد أن أبقى وحدي أفكر في همومي لأن أمك لم تعد معي.»

وهكذا تناولت معه العشاء طائعة، رغم أن هذا كان يمثل لها محنة قاسية.

فقد أخذ يتكلم دون انقطاع عن مقدار كرمه على أمها وعليها.

لقد أتى على ذكر كل ما قام به نحوهما منذ دخل ذلك البيت الصغير، والذي سماه زريبة الحيوانات.

لقد سألها: «ماذا كانت أمك ستفعل لو لم أعطف عليها وأحضرها إلى هنا حيث كان بإمكانها أن تحصل على الراحة وما تشتهيه؟»

وسكت برهة ثم أضاف قائلاً: «والشيء نفسه يسري عليك أيضاً، رغم انني اعلم مقدار نكرانك للجميل.»

فقالت معاتبة: «بل أنا معترفة بجميلك، يا زوج أمي. وكنت أشكرك دوماً لكل شيء كنت تمنحني إياه.»

فهدر قائلاً: «نعم، كنت تشكرينني بشفتيك وتشتميني بعينيك. أتظنين أنني لا أدرك شعورك نحوي؟»

وسكت قليلاً، ثم تابع يقول: «إنني لست من عدم الحساسية بحيث أخدع بالتملق ذاك الذي علمتك إياه أمك نحوي.»

فقالت: «إنني آسفة، إذ كنت أبعث الإستياء في نفسك. ولكنني أظن، حيث أن أمي لم تعد معنا، من الأفضل أن أرحل لأعيش مع أحد أقاربي إذا قبلوا إيوائي.»

فعاد يهدر قائلاً: «وأدع الناس يقولون إنني عدت فطردتك إلى الزريبة التي كنت أنقذتك منها؟ بل ستمكثين هنا معي، وعلى الأقل سيكون هنا من أتحدث إليه عندما أعود إلى المنزل في المساء.»

وهكذا، حاولت كاريتا جهدها في التلطف معه، محدثة نفسها بأنه، على كل حال، لا بد حزين لموت أمها بقدر ما هي حزينة. ولم يمض اسبوع على موت أمها، حتى كان أولئك الذين كان السير مورتيمر يدعوهم أصدقاءه، كانوا قد أصبحوا يتناولون الغداء والعشاء في المنزل.

كان ذلك وكأنه قد أصبح لهم الحق في دخول المنزل متى شاؤوا بعد أن لم يكن مسموحاً لهم بذلك من قبل.

ذلك أن أمها هي التي كانت قالت انها لن تستقبل بعض أصدقاء زوجها الذين لم يكونوا يعجبونها.

فقد كانوا جميعاً يتكلمون بشكل وقح كما كانت كاريتا

تراهم، وكان هو يمضي معهم أغلب أوقاته قبل أن يتزوج.

ولم يترك صحبة أولئك الرجال، إلا بعد أن نهض بنفسه اجتماعياً في المنطقة.

وكانت واثقة انهم هم الذين كانوا أكسبوه تلك السمعة السيئة في الماضي.

لقد كان السير مورتيمر متزوجاً من قبل، ولكن زوجته لم تكن ذات أهمية اجتماعية. وعندما تعرف إلى أمها، كان أرملاً منذ أكثر من عشر سنوات.

ولم يكن اهتمامه الكبير بأمها لمجرد أنها كانت جميلة. وإنما لأنه أصبح بإمكانه بزواجه منها، أن يقوم بدور هام في المنطقة لم يستطع القيام به من قبل.

وإذ تعود كاريتا بأفكارها إلى الماضي، تتذكر نبرة الرضى في صوته وهو يقول لأمها:

«لقد تكلم معي اليوم اللورد الحاكم. لقد كان في غاية الرقة، يا عزيزتي، وهو يسألني عن صحتك.»

وفي مرة أخرى، قال: «لقد ضاعفت المبلغ الذي دفعته رسماً عن الصيد. وقد شكرني الرئيس، وهو اللورد غريمتون كما تعلمين. إنني واثق يا عزيزتي من أننا سندعى إلى تناول العشاء معه قبل احتفال الصيد في تشرين ثاني (نوفمبر).»

لقد أصبح بإمكان كاريتا الآن أن تفهم ما لم تكن تسمح لها قبلاً حداثة سنها بفهمه.

فقد كانت أمها بمثابة سلم لزوجها أخذ يصعد عليه ليعلو عاماً بعد عام.

وفكرت شاكرة، بأن أمها لم تكن تدرك ذلك.

وأن الناس تحركهم دوافع داخلية لما يقومون به.

وشعرت كاريتا بالسرور إذ لم تتذكر ذلك لها.

كان ضيقها بالحياة في ذلك المنزل يزداد يوماً بعد يوم.

وابتدأ زوج أمها يستقبل، عدا أصدقائه أولئك، أناساً لم تعرفهم من قبل.

وساورها الشك في أنهم إنما كانوا ينتظرون موت أمها لكي يبدأوا بالزحف عائدين للتمتع بضيافة زوج أمها.

وحيث أنهم كانوا يكثرون من قلة تهذيبهم، فقد أخذت في الابتعاد عنهم حالما ينتهي العشاء إلى حيث تقفل عليها باب غرفتها.

فقد كانت تحتقر أولئك الرجال ذوي الوجوه السمينة الحمراء التي تنضح بالعرق.

والآن، وهي تسمعه يسير في الممر قاصداً غرفة المكتبة، فكرت في أن تتحدث إليه مرة أخرى.

كانت غرفة فسيحة، وأثناء وجودها فيها وحدها، كانت تشعر بالإرتياح حيث كان بإمكانها أن تقرأ فيها وتنسى ما حولها.

تنسى أولئك الرجال الذين يشعرها إطراؤهم لها بالحرج، كما كانوا يتصرفون نحو النساء الأخريات بطريقة حقيرة.

وكانت ترجو أن يكون زوج أمها قاصداً غرفة مكتبه الذي كان مجاوراً لغرفة المكتبة.

وقال لها حين رآها: «ها أنت ذي. لقد تكهنت بوجودك هنا تتعبين عينيك بالقراءة في الوقت الذي عليك أن تخرجي فيه لاستنشاق الهواء النقي.»

لقد كان دوماً يفتش عن الأخطاء في تصرفاتها لا لشيء سوى لمجرد الإنتقاد.

وضعت كاريتا الكتاب من يدها ونهضت واقفة، وهي تقول: «لقد ذهبت للتنزه بعد الظهر ممتطية الجواد زنبق. فقد كان الجو رائعاً وليس شديد الحرارة، رغم أننا في أواخر شهر تموز (يوليو).»

ولم يجب زوج أمها، بل سار إلى نهاية الغرفة حيث وقف أمام المدفأة، كعادته، ثم قال: «أريد أن أتحدث إليك، يا كاريتا.»

فتقدمت نحوه وجلست على أحد الكراسي.

هذه المرة، لم يعجبها مظهره بشكل خاص. فقد كان قميصه مكرشاً كما كانت عدة أزرار من صداره غير مقفلة.

وكان وجهه متوهجاً. أما شعره، أو بالأحرى ما بقي منه، فلقد كان أشعث.

وانتظرت.

وبعد لحظة، سألها: «هل تستمعين إليّ؟»

«نعم، بالطبع.»

«إذن بإمكاني أن أخبرك بأنك فتاة محظوظة... محظوظة جداً.»

فسألته: «في أيّ شيء؟»

«لقد كنت الآن أزور اللورد ستلبري. لقد قال إنه

يريد التحدث إليّ في موضوع هام وهكذا ذهبت لرؤيته.»

فقالت: «لا بد أن منزله يبعد من هنا أكثر من خمسة أميال كما أظن.»

فلم يجب. وإنما أخذ يحدّق فيها بطريقة لم تعجبها.

لقد كانت هذه عادة فيه جعلتها، في المدة الأخيرة، تشعر بقشعريرة تتملكها.

بينما لم تستطع أن تفهمها تماماً، إلا أنها أحست أنه، بالرغم منه، يشعر نحوها بالاعجاب.

فقد كانت تعرف أنها تشبه أمها.

وفي نفس الوقت، كانت طريقة تحديقه فيها غريبة غير مستحبة.

لقد حدّق فيها الآن طويلاً، إلى أن قالت في النهاية: «ماذا حدث؟ هل أنت مستاء من شيء؟»

فأجاب: «مستاء؟ لا... كلا بالطبع. إنني على العكس، مسرور، بل في غاية السرور بما قاله لي ستلبري. وأظنك تشعرين بالفضول لمعرفة ما قاله؟»

فقالت، لأن هذا ما كان متوقعاً منها: «نعم. بالطبع.»

فتابع يقول: «تأكدي من أنني لم أتوقع شيئاً كهذا. ولكن ستلبري، يا ابنة زوجتي العزيزة، قد طلب يدك للزواج.»

فشهقت كاريتا: «لا يمكنك أن تكون جاداً.»

فهدر السير مورتيمر: «لست جاداً؟ إنني جاد بالطبع. وبينما أعترف بأنني فوجئت بذلك، فقد شعرت بأن هذا

يشرفني. إن ما يشرفني إلى أقصى حد، أن تكون لك مثل هذه المكانة العالية في المنطقة. ستكونين، في الواقع، التالية لزوجة اللورد المحافظ وسيكون ستلبري هو صهري.»

كانت كاريتا تعلم ذلك. ولكن اللورد ستلبري كان بنفس عمر زوج أمها إن لم يكن أكبر.

وتذكرت الآن أنه كان تناول الطعام على مائدتهم منذ يومين، وأكثر من مرة في الأسبوع الماضي.

وكان رأيها فيه أنه أبعد أصدقاء زوج أمها عن حسن النظر أو ظرف الشخصية.

كان رجلاً ضخم الجسم، ولكن وجهه كان طويلاً نحيلاً.

وأخذت تتذكر ما كانت سمعت عنه مرة، بالنسبة إلى سمعته، وذلك من امرأة لم تكن أمها تحبها.

لقد قالت لها تلك المرأة: «إنه رجل بارد لا يعجبني إطلاقاً. فأنا أصدق تماماً تلك القصص التي تروى عنه عن أنه كان يسيء معاملة زوجته حتى انه ظل يضربها حتى ماتت. هكذا تقول الشائعات.»

فقالت امرأة أخرى: «لا أصدق ذلك. ولكنني سمعت بأنه يستعمل القسوة مع جياده. وفتيان إصطبله يرتعبون منه.»

تذكرت الآن هذه الأحاديث، وبسرعة ودون تفكير صرخت قائلة: «كلا... لا يمكنني الزواج... من اللورد ستلبري... إنه فظيع وكبير السن جداً.»

فسألها: «أتعرفين ما تقولينه؟ إن ستلبري هو أحد أهم

الرجال في أكسفوردشاير. إنه غني جداً وقصره وأملاكه أكبر من قصري وأملاكي.»

فقالت: «لا يهمني ما يملكه. ولكن كيف أتزوج من رجل يماثل جدي سناً؟ والذين يقولون عنه انه... كان قاسياً نحو زوجته حتى انها ماتت من... سوء معاملته لها.»

فصرخ فيها: «إنها شائعات وأكاذيب. لا يصدق مثل تلك الشائعات سوى الأغبياء أمثالك. كيف تجرؤين، وأنت التي لا تملكين فلساً، على رفض رجل بمثل هذه الأهمية والثراء ما يجعلك لا تحتاجين أحداً طوال حياتك؟»

فردت عليه بحدة: «لا أريد أمواله ولا مركزه وعندما أتزوج، وهذا ما أرجو حدوثه يوماً ما، فسأتزوج بعد حب، مثل أمي... وأبي.»

وأثناء كلامها، أدركت أنها أخطأت في هذا القول.

فسألها السير مورتيمر: «وماذا أفادها حب أبيك لها؟ ذلك البيت المستأجر في بورتسماوث الذي هو أشبه بزريبة الحيوانات؟»

فاندفعت تقول: «ولكننا كنا سعداء فيه.»

فقال ساخراً: «سعداء؟ بتلك الأسمال البالية التي كنتما، أنت وأمك، ترتديانها، بينما ليس هناك من الطعام ما يكفي دجاجة. ولا يخبىء لكم المستقبل سوى العوز والفاقة.»

وعلا صوته وهو يقول بعنف: «الفاقة... نعم... إنها الكلمة الصائبة. الفاقة.»

صرخ بهذه الكلمة في وجهها، فوقفت وهي تقول بهدوء:

«يمكنك أن تسخر من المنزل الذي عشنا فيه مع أبي عندما لم يكن يعمل في البحر. ولكننا كنا سعداء جداً جداً.»

فقال: «إذن، فأنت أكثر غباء مما كنت أظن. ربما لا تدركين أن هذه هي الحياة التي من الممكن أن تعودي إليها إذا أنت رفضت عرض ستلبري بالزواج منك.»

فقالت بنفس الهدوء: «وهذا ما أنويه. فهل لك، من فضلك، أن تخبره بأن جوابي له، رغم أنه يشرفني جداً عرضه هذا، جوابي هو كلا.»

فحملق السير مورتيمر فيها.

ثم، إذا به يلقي برأسه إلى الوراء وهو يطلق ضحكة عالية خشنة، ثم يقول: «هل تصدقين حقاً، أيتها الحمقاء، أنني سأسمح لك بأن ترفضي رجلاً مثل ستلبري؟ إنك ستقبلين به وستشكرينني على ما فعلته لك.»

ومرة أخرى، قال بعنف: «ما الذي لديك لاجتذاب الرجل سوى وجه جميل؟ إنك لا تملكين فلساً. هل تفهمين هذا؟ إنك خالية الوفاض تماماً إلا مما أعطيك إياه.»

وازداد علوّ صوته وهو يتابع قائلاً: «إن ستلبري مفتون بك. وأنا لا أنوي أن أخبره أية طفلة متعبة ناكرة للجميل هي أنت.»

فاستدارت كاريتا وكأنها تريد مغادرة الغرفة، ولكن السير مورتيمر أخذ يهدر قائلاً: «عليك أن تمكثي هنا وتسمعي ما أقول. دعيني أوضح لك لآخر مرة. لقد أعطيت كلمتي بالقبول للورد ستلبري، وهو سيزورك غداً لكي تقررا موعد الزفاف.»

فصرخت قائلة: «إنني لن أتزوجه... لن أتزوجه. إنه يثير

اشمئزازي. ثم إنني لا أريد أن أموت بسبب... قسوته... كما ماتت زوجته السابقة.»

«إذا كان هذا ما تخافين منه، إذن فسأعرف كيف أتعامل معك، يا فتاتي. فافهمي جيداً...»

ورفع اصبعه في وجهها، «إذا أنت رفضت أن تقابلي اللورد غداً، فسأضربك كل يوم إلى أن ترضي بذلك. سأفعل ذلك حتى ولو اقتضى الأمر أن أنقلك لعقد الزواج محمولة على الأيدي.»

وأثناء كلامه، كان يقترب منها.

وبصرخة رعب مفاجئة، استدارت كاريتا ثم ركضت هاربة من الغرفة، قبل أن يستطيع إمساكها، ثم صفقت الباب وراءها.

اجتازت الممر ركضاً إلى الردهة حيث صعدت السلم إلى حيث غرفتها لتقفل الباب عليها.

وهناك ألقت نفسها على سريرها ودفنت وجهها بين الوسائد.

لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً.

إن ما قاله لها زوج أمها لا بد أن يكون كابوساً ستستيقظ منه بعد لحظات.

كيف تتزوج رجلاً عجوزاً؟

إنها تعلم الآن أن ما كانت سمعته عن قسوته صحيح.

مع أن زوج أمها جعلها ترتجف، إلا أنه زاد من كرهها للورد ستلبري.

وتذكرت ما كانت تشعر به حين كان يصافحها عند زياراته لهم.

كانت يده باردة رطبة، وكان في شخصيته ما يجعلها تنكمش.

وأخذت تمتم: «أواه، يا أمي، أنقذيني... أنقذيني... كيف أعيش مع رجل أكرهه؟»

وأخذت تفكر في ضربه لزوجته وقسوته نحو جياده.

ثم تذكرت تهديد زوج أمها لها.

لقد كان وعد أمها، بعد أن ضربها مرة، بأنه لن يعود إلى ضربها مجدداً.

ولكن أمها لم تعد موجودة.

إنها واثقة الآن من أنه لن يعاود ضربها فقط، وإنما سيستمتع بذلك، وذلك بسبب لهفته إلى أن يصبح اللورد ستلبري صهره.

فقد كانت تعرف جيداً تلك الومضة في عينيه عندما كان يذلّها بطريقة ما.

وليس هناك ما هو أكثر إذلالاً لها وتحقيراً، من ضربه لها.

وهذا ما سيفعله، دون شك، إلى أن ينال ما يريد.

وتمتمت، لا أستطيع احتمال ذلك... لا أستطيع.

وفكرت في أبيها وفي ذلك التألق الذي كسا وجه أمها عندما ماتت.

عند ذلك فقط، وكأن أباها كان يكلمها ويعلّمها ماذا تفعل، علمت ما عليها أن تقوم به.

وعجبت كيف لم تفكر في ذلك من قبل.

وببطء نهضت من سريرها.

يجب أن تهرب من البيت وذلك قبل أن يزورهم اللورد ستلبري عصر الغد.

وسارت إلى النافذة تنظر منها إلى الخارج.

كانت حرارة الجوّ قد تلاشت، وابتدأت الظلال تنتشر.

وأخذت الطيور تجثم فوق الأغصان.

كل شيء كان هادئاً لم يتغيّر ما عدا عالمها الذي انقلب رأساً على عقب.

وتساءلت، ماذا أستطيع أن أفعل... وإلى أين أذهب..؟ ثم انتظرت الجواب.

ومرة أخرى، وكان أباها كان يخبرها، تذكرت أن لديه أخاً يعيش في نورفولك. والذي كان، كما يبدو، رجلاً غريب الأطوار، وأكبر سناً من أبيها.

وكما قيل لها، كان عمها يعيش وحده منعزلاً، مفضلاً صحبة الحيوانات على صحبة الإنسان.

وكان كتب عن ذلك كتباً مقالات للمهتمين بتنشئة الحيوانات والمواشي والأغنام.

وتذكرت كاريتا كيف كانت تتوسل إلى أبيها وهي فتاة صغيرة، إذ تقول له: «حدثني عنه، يا أبي.»

فكان هو يجيبها: «إنه أكبر مني كثيراً، وهو سعيد في حياته الغريبة تلك فهو لا يحب حضور الحفلات، ولا مقابلة الناس إلا إذا كانوا يشاركونه اهتماماته.»

وحينذاك قالت: «يبدو أنه رجل غريب حقاً.»

فقال أبوها: «لكل من الرجال اهتماماته الخاصة. فأنا أحب البحر وكنت دوماً أحب أن أكون بحاراً. أما أخي فكان انعزالياً.»

وسكت لحظة قبل أن يتابع قائلاً: «عندما ورث

بعض المال، انتقل للعيش وحده حتى لم أعد أراه إلا نادراً.»

وعلى كل حال، فقد كتب عمها أندرو إلى أمها معزياً عندما قرأ عن وفاة أخيه في الصحف.

وكانت رسالة رقيقة لولا أنها كانت غير شخصية.

وهكذا أدركت كاريتا الآن أن هذا هو المكان الذي عليها أن تذهب إليه.

إذ ربما سيعتبرها عمها أندرو نعجة تائهة فيسبغ عليها حمايته.

وحدثت نفسها بأن هذا هو المكان الذي ستذهب إليه.

وحاولت أن تكون عملية، فتفكر بشكل منطقي بما ينبغي عليها القيام به.

وأخيراً، سمعت نقراً على الباب.

وعندما سألت من الطارق، أجابها خادم: «يقول السيد انه يريد أن تنزلي لتناول العشاء، يا آنسة كاريتا.»

فأجابت: «أخبره أنني في سريري لأن لديّ صداعاً.»

فذهب الخادم، بينما أخذت هي تحزم أمتعتها.

وكانت تعلم أن من الصعب أن تأخذ معها الكثير من حوائجها.

وهكذا اختارت ثلاثة أثواب من الموسلين الخفيف لكيلا يأخذ حيّزاً كبيراً، وقميص نوم وبعض الملابس الأخرى.

وكانت تعلم أن كل هذا يمكن أن يتّسع له سرج حصانها زنيق.

إنها سترتدي أفضل ثوب ركوب لديها، وعندما يدخل فصل الشتاء، سيكون عليها أن تشتري معطفاً.

وهنا تذكرت أنها ستكون بحاجة إلى نقود.

ولم يكن لديها سوى القليل منه حيث انها لم تكن تشعر بالحاجة لذلك.

لقد كان زوج أمها سخياً مع أمها، وكان يدفع ثمن كل مشترياتها دون تذمر حتى ولو كانت من أغلى متاجر لندن.

ولم يكن لدى كاريتا سوى قطع نقود قليلة لتشتري، أحياناً، زجاجة مرطبات أثناء نزهاتها ولم تكن بحاجة لإنفاق أكثر من ذلك.

وفكرت بأنها يجب أن تحصل على شيء من النقود، فقد كان الطريق إلى نورفولك طويلاً وعليها أن تتوقف في الطريق لإيواء جوادها وإطعامه. وكذلك لتسد جوعها هي الأخرى.

عند ذلك، تذكرت مجوهرات أمها.

أثمن القطع منها، كانت في الخزنة في مكتب زوج أمها، وهذا ما لا سبيل لها للوصول إليه.

أما القطع العادية والتي كانت تتحلى بها على الدوام، لأن ذلك كان يسر زوجها، فقد كانت في كيس مجوهراتها.

وكان من بينها عقود وأساور وأقراط كانت تتحلى بها أثناء الحفلات الخاصة عندما كانت تدعى اللايدي هالدون وذلك قبل زواجها.

وهكذا قررت أن تأخذ مجوهرات أمها معها.

كانت من الحكمة بحيث كانت تدرك أن وضعها في كيس السرج هو خطأ كبير.

إذ ربما تحتاج إلى أن تدع السائس أو أي خادم آخر ان يساعدها في وضع السرج.

لطالما حذرتها أمها، كلما كانتا في سفر، من اللصوص.

وهكذا خبأت الحليّ في بطانة سترة الركوب حيث تأمن عليها من السرقة رغم ما تسببه لها من مضايقات.

وما أن نظرات في كيس حليّ أمها، حتى واتتها فكرة.

كان فيها خاتم زواج أمها من أبيها. وكانت قد خلعته عندما وضعت خاتم زواجها من السير مورتيمر.

وضعت كاريتا الخاتم في إصبعها فلاءمها تماماً بينما كانت تفكر في أن أباها يرشدها مرة أخرى إلى ما عليها أن تفعل.

إذ، حيث انها فتاة شابة، فقد كان من غير المستحب أن تسافر دون مرافقة.

بينما الزوجة، على كل حال، كان بإمكانها السفر وليس معها سوى سائس يبعد عنها ببعض المسافة.

فهي الآن، إذا كان عليها أن تتوقف في مكان ما، يمكنها أن تدعي أن حصان سائسها قد فقد أحد حدوته. ولهذا فهو سيلحق بها فيما بعد.

وحيث أنها تضع خاتم زواج، فهم لن يشكوا في أنها تتظاهر بغير شخصيتها.

وأضافت إليه أحد خواتم أمها الماسية، لكي تثبت ما تدعيه.

ولكنها ما زالت خائفة من أنها قد تظل بحاجة إلى المال إذا ما رفض عمها إيواءها.

وبعد أن فكرت عدة دقائق، وضعت سواراً ثمينة في

حاشية تنورة الركوب وثبتتها جيداً. ووضعت أخرى في ظهر سترة الركوب.

وعندما أنهت مهمتها، حدثت نفسها بأنها ماهرة جداً في الواقع.

ثم أعدت كل شيء بما في ذلك حذاء الركوب والقبعة، وبعد ذلك بدلت ملابسها.

وأخيراً، استلقت على السرير شاعرة بسكينة النفس.

* * *

حين زحفت كاريتا هابطة السلم، كان الوقت ما زال ظلاماً.

ثم خرجت من أقرب باب يؤدي إلى الاصطبل.

وعندما وصلت إليه، لم يكن هناك سوى سائس كبير السن.

كان هذا جالساً في غرفة معدات الركوب، ماداً ساقيه على كرسي آخر، وقد استغرق في النوم.

لم تزعجه كاريتا من نومه، بل سارت على أطراف أصابعها إلى حيث مربط جوادها زئبق ثم أسرجته بنفسها.

وكان هو، أثناء ذلك، يحك أنفه بها كعادته.

وكانت هي تعتبر زئبق هو الصديق الوحيد الذي بقي لها بعد وفاة أمها.

قادته خارجة به إلى الفناء حيث امتطته، ثم سارت به متمهلة كيلا يصدر عنه أي صوت، ومن ثم خرجت من الاصطبل متجهة نحو البوابة الخلفية التي تنفذ إلى البراري.

وكان لديها فكرة عن الاتجاه الذي عليها أن تتبعه. فقد كانت مصممة على اجتياز البراري، وذلك لكي تبتعد بسرعة وقدر إمكانها عن البيت.

ذلك أن زوج أمها، حالما يعلم بفرارها، سيؤلف فرقة للتفتيش عنها.

ذهبت مسرعة، إنما مراعية عدم إرهاق زئبق، والذي كان جوادها الخاص منذ جاءت إلى منزل زوج أمها، والذي كان إهداؤه لها هذا الجواد هو الشيء الوحيد الذي شكرته لأجله من كل قلبها.

تابعت الركوب دون توقف إلا لتدع زئبق يشرب من جدول صاف يمران به، ثم يتابعان السير بعد ذلك.

ثم ابتدأت كاريتا تتساءل عن مكان تمضي فيه الليل.

وكانت قصتها عن السائس الذي تأخر عنها، ليلحق بها فيما بعد، جاهزة.

فكانت تبحث عن خان صغير هادىء لا يكثر أصحابه من الأسئلة.

إنما ينبغي أن يكون في مكان لا يصل إليه التفتيش عنها.

فقد كانت واثقة تماماً من ان زوج أمها سيفتش عنها لأنه كان مصمماً على تزويجها من اللورد ستلبري بالرغم عنها.

ووقعت عيناها على حقل بدا لها وكأن الرجال كانوا يعملون فيه أثناء النهار.

فقد كانت هناك آثار عجلات عربة فوق العشب.

وإلى جانب ذلك رأت حفرة عميقة لا بد أنهم كانوا يحفرونها.

وكانت واقفة تتساءل عن سبب حفرها، عندما برز، فجأة، حصان من فوق السياج العالي خلف الحفرة.

لقد قفز الحصان بشكل رائع جعلها تظن أنه سيتجاوز الحفرة.

ولكن، إذا بالحصان يتعثر عند حافة الحفرة تلك.

وانطلقت من بين شفتيها صرخة ذعر وهي ترى الرجل الذي كان يمتطيه، يسقط على رأسه بين الحجارة.

ووقف الحصان مترنحاً بينما أسرعت كاريتا نحو راكبه.

الفصل الثالث

تبعت كاريتا عربة المزرعة التي كان الرجلان قد وضعا عليها الرجل الغريب، بينما كانت هي ممتطية جوادها وتجر خلفها الحصان الأسود.

ذلك أنها كانت، عندما وصلت إليه، قد وجدته غائباً عن الوعي.

وأدركت أنه، عند سقوطه، قد ارتطم رأسه بحجر كبير من تلك التي على حافة الحفرة.

لقد ترجلت، عند ذاك، عن ظهر حصانها وهي تتساءل عما بإمكانها عمله.

ولكنها ما لبثت أن شعرت بالإرتياح عندما شاهدت عربة مزرعة آتية من الطريق الضيق الذي كانت هي قد أقبلت منه داخلة إلى الحقل.

وعندما أخذت تلوّح بيديها وتصيح، فتح الرجلان البوابة واتجها نحوها.

ولم يكن هناك حاجة لتفسير أي شيء إزاء المشهد الذي بدا أمامهما.

لقد أخذ أحدهما يربت على الحصان الفحل الذي كان ما يزال يرتجف من أثر صدمة السقوط بينما كان الرجل الآخر يقول: «من الأفضل أن نأخذه إلى المزرعة.»

وهكذا رفعا الغريب إلى حيث وضعاه بكل عناية في العربة.

ثم ساعدها احدهما على امتطاء صهوة جوادها، ثم ناولها لجام الحصان الأسود قائلاً: «إتبعينا.»

فاومأت برأسها بينما سار الغلامان ببطء ولم يتوقفا إلا عند إغلاق البوابة خلفهم.

وبعد أن قطعا حوالي النصف ميل، وصلا إلى منزل المزرعة الذي كان عبارة عن مبنى مستطيل منخفض السقف من الآجر.

وكانت النباتات المتسلقة الزاحفة فوق جدرانه الخارجية تسبغ عليه مظهراً بديعاً، وكان واضحاً أنه منزل قديم.

ولكنه كان من الإتساع بحيث تساءلت كاريتا عما إذا كان بإمكانها إقناعهم بأن تمضي ليلتها فيه.

لقد كانت تشعر بالتعب الشديد وبالجوع، وكانت تعلم أن زئبق كان يشعر بالشيء نفسه.

اما الحصان الأسود فقد كان يبدو مطواعاً تماماً وهو يسير بجانبها وكأن الذهول يتملكه.

ولم يتجه الغلامان نحو مقدمة البيت، بل استدارا إلى الخلف حيث كان يوجد فناء اصطبل رأت فيه كاريتا مكاناً فسيحاً للحصانين.

وأوقفا العربة عند الباب الخلفي للمنزل، ليركض أحد الغلامين داخلاً وهو يصيح: «أمي... أمي.»

بينما تقدم الغلام الآخر إلى كاريتا قائلاً: «سآخذك إلى الإصطبل.»

ثم سار مجتازاً الفناء. وهي تتبعه إلى أن ترجلت عن حصانها عند باب الإصطبل.

وسرها أن ترى عدداً كبيراً من مرابط الخيل بعضها

يحتوي على جياد عربات أما في البعض الآخر، فقد كان هناك جياد للركوب، إنما أقل قيمة من زئبق وحصان الرجل الغريب. كان اثنان من المرابط فارغين، وبمساعدة الغلام، وضعت فيهما الجوادين

وفي هذه الأثناء، كان رجل متوسط السن قد جاء إليهما يسأل: «ماذا حدث؟»

فقال الغلام: «إنه حادث، يا جاك، ساعدنا بالنسبة إلى الحصانين.»

وبدا على الرجل أنه أقل كلاماً من الغلام، ولكنه رفع السرج عن ظهر زئبق بيدين خبيرتين ورأت كاريتا في المعلف علفاً وافياً.

أخذت تربت على الحصان الأسود، ولكنها، عندما خرج الغلام مجتازاً الفناء، تبعته راجية أن تكون المرأة التي ناداها أمي عطوفة إزاء ورطتها هذه.

وعندما دخلت المنزل من الباب الخلفي، وجدته مرتباً من الداخل.

كانت تمتد في السقف دعامات ثقيلة من خشب السنديان، كما كان هناك مدفأة كبيرة مفتوحة.

وكان الغلام قد اختفى بينما بقيت هي واقفة لا تعرف ماذا تفعل، عندما سمعت أصواتاً قادمة من الطابق الأعلى.

عند ذلك أدركت أنهم قد أخذوا الرجل الغريب إلى هناك.

وفكرت في أن عليها، ولو تأدباً، أن تسأل عن حاله.

وهكذا صعدت السلم لترى باباً مفتوحاً كانت الأصوات تخرج منه.

فدخلت وقد تملكها الإنفعال قليلاً.

وهناك كانت امرأة بدينة حمراء الوجنتين منحنية فوق السرير، وبدت لكاريتا تماماً كما اعتادت أن تتصور زوجة المزارع.

إلى جانبها كانت امرأة أخرى مسنة واضعة مئزراً. وكانت هذه تنزع حذاء الغريب بينما كان هو مستلقياً مغمض العينين.

وكان في جبينه، عند منبت الشعر جرح ما زال ينزف.

كانت المرأتان تتحدثان بينما الغلامان اللذان أحضراه إلى المزرعة واقفان ينظران.

وكانت زوجة المزارع هي التي رأت كاريتا أولاً، فهتفت: «آه، ها أنت ذي، لقد أخبرني ولداي أن حادثاً قد وقع عند الحفرة، لقد كنت أخبرتهم اكثر من عشر مرات بألا يتركاها مفتوحة.»

وتنهدت ثم تابعت تقول: «سآكل قبعتي إذا هما وجدا فيها أي علامة لوجود نبع كما قيل لهما.»

فقال أحد الغلامين: «بل يوجد نبع ماء هناك، يا أمي.»

قال ذلك، ثم سار ماراً بكاريتا مغادراً الغرفة يتبعه أخوه.

تقدمت كاريتا نحو السرير تنظر إلى الغريب، ثم سألت: «أتظنين أن إصابته بالغة؟»

فأجابت زوجة المزارع: «لا تدعي الخوف يتملكك. فأنا أرى أن إصابة زوجك لا تعدو ارتجاجاً خفيفاً في المخ سيتعافى منه بعد أيام معدودات.»

ففتحت كاريتا فمها لتقول إنه ليس زوجها وانه رجل غريب بالنسبة إليها لم تره إلا عند الحادثة.

ولكن، خطر لها فجأة بأن هذا المكان هو الذي يصلح

للإختفاء فيه أثناء بحث زوج أمها عنها، ذلك أنه سيسأل عن فتاة صغيرة غير متزوجة، وليس عن امرأة متزوجة وخرجت بصحبة زوجها.

شعرت وكأن هذا استجابة لدعائها.

وربما هذا يفسر السبب في وضعها، دون وعي منها تقريباً، خاتم زواج أمها في إصبعها.

سألت: «أتظنين أن من الممكن احضار ممرضة له؟»

فسألتها زوجة المزارع: «ممرضة؟ ولماذا تريدين الممرضة؟ إنني وجيسي معي، سنعتني به إلى حين يتعافى. أليس كذلك يا جيسي؟»

فتمتمت المرأة التي كانت الآن قد استطاعت نزع حذائه، موافقة.

وتابعت زوجة المزارع: «أراك صغيرة جداً وأظنكما لم تتزوجا إلا منذ عهد قريب، ولكنك ستتعلمين عندما يصبح لديك زوج وثلاثة أبناء مثلي، أن هناك دائما اثنان منهم يتعاركان. إنني أفكر أحياناً بأنني أمضيت في تضميد الجراح أوقاتاً اكثر مما أمضيت في صنع الطعام.»

وضحكت لنكتتها هذه.

فقالت كاريتا: «هذا لطف بالغ منك، وأشكرك جداً لقبولكم... لنا.»

واحمر وجهها وهي تقول الكلمة الأخيرة، ولكن زوجة المزارع لم تلاحظ ذلك إذ أنها كانت منهمكة في وضع الملاءة للرجل الغريب، وإنما قالت: «والآن ستأخذك جيسي إلى غرفتك قرب هذه الغرفة حيث ستنامين أثناء غياب رجلك عن وعيه ويمكنك أن تحلي ما معك من أمتعة.»

وقبل أن تتمكن كاريتا من الجواب، نهضت جيسي نحو الباب الذي يصل بين الغرفتين، ثم فتحته.

كانت الغرفة التي وضع فيها الغريب واسعة ذات نافذة مقوسة، أما هذه الغرفة فكانت صغيرة ضيقة.

ولكنها، في رأي كاريتا، كانت كل ما تريده في هذه اللحظة.

قالت لجيسي: «إن حوائجي على ظهر جوادي، سأذهب لاحضارها.»

فأومأت المرأة، والتي يبدو أنها قليلة الكلام، وهي تكشف غطاء السرير.

ورأت كاريتا أنه كان قد سبق وفرش بملاءات نظيفة.

وكان للغرفة باب آخر ينفذ إلى حيث السلم، فخرجت منه ثم نزلت إلى الطابق الأسفل متجهة نحو الإصطبل.

كانت أمتعتها المربوطة إلى السرج معلقة على مسمار في الحائط أمام مربط زئبق.

ولم يكن جاك موجوداً، وكان الحصانان يأكلان العلف الوافر أمامهما سعيدين.

كما رأت كاريتا دلاء المياه مليئة.

وعادت إلى بيت المزرعة بمتاعها وهي مرتاحة البال.

لقد أدركت الآن مقدار الخوف الذي كان يتملكها طوال النهار خوفاً من أن يعثر عليها زوج أمها، فيصبح من المستحيل عليها الهرب مرة أخرى.

فقد كانت تعلم أنه سيسره ضربها إلى أن تخضع لما يريد.

وأخذت تحدث نفسها، أكرهه... أكرهه.

وفكرت في أن بقاءها مدة يومين فقط، سيتيح لزئبق فرصة يرتاح فيها تماماً قبل أن تتابع طريقها إلى نورفولك.

وعندما وصلت إلى الغرفة في الطابق الأعلى وجدت انهم قد بدلوا ملابس الغريب ووضعوه في الفراش.

وكان يرتدي قميص نوم أبيض إفترضت هي أنه يعود إلى المزارع أو أحد أبنائه.

والآن، وقد استدار وجهه باتجاهها، أمكنها أن ترى مقدار وسامته.

وعندما رأتها زوجة المزارع، قالت لها: «كنت موشكة على وضع ضماد على جرح زوجك. إنه ليس عميقاً ولكن أثره سيبقى حوالي الأسبوع.»

فسألتها كاريتا: «هل أنت واثقة من أنه سيستعيد وعيه قبل ذلك؟»

فأجابت المرأة: «هذا ما أتوقعه. إن ذلك يتوقف على سرعة شفاء الجرح. إنني ألقي كل اللوم على ابنائي. انهم لا يستمعون إليّ.»

وكانت جيسي ترفع ثياب الغريب الملطخة بالوحل من جراء سقطته.

أفرغت محتويات جيوبه، ووضعتها على منضدة هناك.

ونظرت كاريتا إلى تلك المحتويات بدهشة، رأت كيساً مليئاً بالنقود، كما كانت هناك محفظة محشوة بالأوراق المالية.

وتبعت عينا زوجة المزارع اتجاه نظراتها، ثم قالت لها: «الأفضل أن تهتمي بنقود زوجك وتضعيها في مكان

آمن. لا أريد أن يقول أحد انه ترك منزلي وقد نقصت نقوده.»

فمشت كاريتا نحو المنضدة مكرهة بينما كانت المرأة تقول وكأنها تتحدث إلى طفلة: «خذيها معك إلى غرفتك ففيها درج يمكنك أقفاله.»

فقالت كاريتا: «إن من كرم أخلاقكم أن... تقبلونا في بيتكم، وطبعاً... علينا أن ندفع لكم مقابل هذا.»

فضحكت زوجة المزراع قائلة: «سأتحدث عن ذلك مع زوجك عندما يستيقظ وتعود إليه عافيته. وإذا كان هناك من عليه أن يدفع فهم أبنائي الذين حفروا تلك الحفرة ولم يغطوها وكان من الممكن أن يسقط فيها أي من ماشيتنا.»

وأرادت كاريتا أن تقول إنهم بالتأكيد لم يتوقعوا أن يقفز فوقها مثل هذا الغريب بحصانه الفحل هذا.

ولكنها كانت، على كل حال، جداً شاكرة لتمكنها من قضاء ليلتها هنا. وهكذا تناولت كيس نقود الغريب محفظته، وعندما اتجهت نحو الباب المؤدي إلى الغرفة الأخرى، قالت المرأة: «والآن، لم أسألك عن إسمك، وأظن أنك لم تسأليني عن اسمي كذلك.»

فقالت كاريتا: «كلا، وسيكون لطفاً بالغاً منك لو أخبرتني باسمك.»

وكانت تتساءل بذعر، وهي تتحدث، عن الإسم الذي بإمكانها أن تطلقه على نفسها.

قالت زوجة المزارع: «إن إسمي هو جونسون وهذه المزرعة ظلت ملكاً لآل جونسون ثلاثة أجيال.»

فقالت كاريتا: «أما إسمي فهو فريمان وكان هذا أول إسم خطر لها، ورأت أنه قد يكون متلائماً، بشكل ما، مع وضعها الحاضر حيث أن معناه هو الرجل الحر بينما هي مختبئة.

فقالت المرأة: «حسناً، يا سيدة فريمان إنني مسرورة إذ أقدم لكما خدمة، وعندما يعود زوجي الآن، فأنا أدعوك إلى أن تغيري ملابس الركوب هذه، ثم تنزلي لتناول الطعام معنا.»

فقالت كاريتا: «هذا سيسرني لأنني جائعة جداً في الحقيقة.»

وكانت وهي تتحدث، تشعر بضعف بالغ والذي لم يكن بسبب الجوع فقط، وإنما بسبب كل ما مر بها من أحداث.

وقالت السيدة جونسون: «أسرعي إذن.»

سارت كاريتا إلى غرفتها حيث جلست على حافة السرير.

كانت تشعر وكأن الغرفة تدور حولها.

كيف كان ممكناً أن يحدث كل هذا أو بمثل هذه السرعة؟

ومع ذلك، عندما كانت في قمة توجسها بالنسبة إلى قضاء الليل، إذا بها تنقذ بواسطة رجل غريب.

وحدثت نفسها باطمئنان بانه يبدو سيداً مهذباً شهماً، وانها واثقة من أنه لن يمانع في ادعائها بأنها زوجته لأجل قضاء هذه الليلة.

ولكن إذا وجدت أي احتمال في أنه لن يرضى بهذا الوضع، فبإمكانها أن تتسلل خارجة قبل أن يصبح بإمكانه، صحياً، متابعة رحلته.

وخلعت قبعة الركوب، وكانت على وشك خلع سترتها عندما تذكرت المجوهرات التي كانت خاطتها بداخلها.

إذا رأت جيسي أو أي أحد آخر، الحلي، فسيرون ذلك غريباً.

ثم تذكرت نقود الرجل الغريب.

ووجدت الدرج بسهولة حيث لم يكن في الغرفة، باستثناء السرير وخزانة ملابس صغيرة، سوى هذا الصندوق ذي الأدراج، وكان يبدو عليه القدم، ما يوحي بالظن أنه موجود في المنزل هذا منذ بناء البيت.

ومن بين الأدراج كان هناك واحد بمفتاح ووضعت كاريتا نقود الرجل الغريب، أولا.

وعندما طوت سترة الركوب، وجدت لها مكاناً في الدرج لتدسها فيه.

وعندما أقفلت الدرج، تحيرت أين تضع المفتاح لمزيد من الأمان.

ثم تذكرت شيئاً كانت أمها تقوم به كلما كانتا تخرجان من البيت معاً.

فوضعته تحت زاوية السجادة.

فقد كان من غير المحتمل أن يبحث عنه هناك أي شخص يدخل الغرفة.

وبعد أن غسلت وجهها ويديها بماء بارد، أسرعت تهبط السلم.

وكانت أسرة جونسون قد سبق واتخذت مجلسها حول مائدة المطبخ.

وكان في المطبخ مكان فسيح علقت في سقفه شرائح اللحم، والبصل، وثلاث دجاجات.

كان المزارع جونسون رجلاً متوسط العمر على شيء من البدانة وقد ابتدأ شعره يتساقط.

كان واقفاً عند طرف المائدة يقطع اللحم عن فخذ خروف كبيرة.

وكانت السيدة جونسون تجلس في الطرف الآخر.

وكان هناك ثلاثة فتيان بما فيهم الغلامان اللذان حملا الرجل الغريب، وفتاة في الرابعة عشرة، والتي كان واضحاً لكاريتا من الشبه البادي، أنها أختهم.

وكانت جيسي تحضر الطعام من الفرن إلى المائدة، لتجلس بعد ذلك بجانب السيدة جونسون.

وعندما رأت هذه كاريتا تدخل، هتفت تقول لها: «آه، ها أنت ذي، يا عزيزتي، كنت أرجو أن لا تتأخري لكي لا يبرد طعامك. أظنك تعرفين ولدي بيلي ولوك، وهذا صديقهما جيم، وهذه ابنتي مولي وزوجي عند طرف المائدة.»

فتقدمت كاريتا نحو السيد جونسون تحييه قائلة: «كيف حالك؟ إن من كرم أخلاقكما، أنت وزوجتك، ان تسمحا لنا بالإقامة معكم. وأنا لا أدري ماذا كنت سأفعل لو لم يظهر ولداكما في اللحظة المناسبة.»

فقال المزارع: «مساء الخير.»

وقبل أن ينطق بكلمة أخرى، كانت زوجته تهتف من طرف المائدة الآخر: «والآن إجلسي يا سيدة فريمان، فأنا أعلم أنك بحاجة إلى الكثير من الطعام في معدتك بعد كل ما عانيته.»

فوضع السيد جونسون أمامها طبقاً عامراً باللحم، وكانت كذلك كميات كبيرة من البطاطا والبازلاء والجزر تتناسب معه.

وتساءلت عما إذا كان بإمكانها أكل هذا كله. وعندما انتهت، شعرت بأنها لن تشعر بالجوع بعد ذلك لوقت طويل.

وانشغل أفراد العائلة بتناول طعامهم ما جعلهم لا يكادون ينطقون بكلمة.

ولكن السيدة جونسون لم تسكت عن حديث لم يكن أيّ من الحاضرين يبدي اهتماماً به.

قالت لكاريتا التي كانت منهمكة بتناول طعامها: «كنت أتساءل عن المكان الذي كنتما ذاهبان إليه.»

ووضعت جيسي كوباً من القهوة أمامها، وكانت على وشك أن تجيب السيدة جونسون بأنها كانت ذاهبة إلى نورفولك، عندما فكرت في أن ذلك قد يكون عملاً غير حكيم.

إذ ربما، وهذا غير محتمل، تتذكر زوج أمها أن لديها عماً في نورفولك.

نعم، هذا غير محتمل رغم أنها كانت، حين كتبت إلى أقربائها تخبرهم بوفاة أمها، كانت أخبرته بأن عمها الآن قد ورث اللقب وأصبح يدعى اللورد وينسلي أوف وين.

ولكن من الحذر، على كل حال، المجازفة.

فسارعت تقول: «كنا ذاهبين الى إيسكس.»

فأجابت السيدة جونسون: «آه، إنه طريق طويل من حسن الحظ أنكما أخذتما فترة راحة. إنني دائماً أجد الركوب متعباً جداً، كما تعلم أسرتي كلها.»

ولم ينتبه أحد من أفراد الأسرة الذين كانوا مكبين على طعامهم، إلى كلامها، بينما تابعت هي: «أخبرني جاك أن لديكما حصانين فاخرين، فلا تقلقي لأجلهما. إن جاك رجل ماهر بالنسبة إلى الخيل، أليس كذلك أيها الفتيان؟»

ساد صمت قصير قال بعده ذلك الذي يدعى بيلي: «نعم يا أمي هذا صحيح.»

وجاءت الحلوى في النهاية محشوة بالزبيب ومغمورة بالقطر.

وبعد عدة لقيمات فقط، لم تستطع كاريتا المتابعة وخشيت إن هي قالت ذلك أن تسبب امتعاضاً.

ثم شعرت بشيء يتحرك عند ساقيها. فأدركت أنها الهرة التي كانت شاهدتها عند قدومها.

وفعلاً، كانت هناك اثنتان تحت المائدة ولا شك أنهما كانتا شاكرتين جداً لكاريتا التي كانت تلقي إليهما خلسة بقطع صغيرة من الحلوى تلك.

وعندما انتهى الطعام، نهض الفتية الثلاثة وخرجوا من الغرفة.

وصرخ الأب في أثرهم: «لا تنسوا تفقد الدجاجات.»

وجاء رد بعيد بالإيجاب وهم يتوجهون نحو الباب الخلفي.

وقالت السيدة جونسون تشرح الأمر لكاريتا: «إننا نغلق الباب على الدجاج كل ليلة، فإن الثعالب تطوف في الأنحاء.»

فابتسمت كاريتا.

فقد كانت تعلم أن هذه شكوى عامة بين المزارعين ولكن زوج أمها كان دائم الشكوى من عدم وجود ما يكفي من الثعالب للإستمتاع بصيدها، وكان يقول إنه، لو كان الأمر بيده، لأنشأ مزرعة لتربيتها.

ولكن التفكير فيه جعل جلد كاريتا يقشعر.

وقالت للسيدة جونسون: «إنني متعبة جداً وأرجو أن تعذريني إذا أنا ذهبت إلى الفراش مبكرة.»

فقالت المرأة برقة: «طبعاً يا عزيزتي، إذهبي ساصعد معك الآن لأرى إن كان زوجك بخير. والأفضل أن تدعي الباب بينكما مفتوحاً حتى يمكنك سماعه إذا كان نومه مضطرباً اثناء الليل.»

وأرادت كاريتا أن تسألها عما عليها أن تفعله في هذه الحالة، ولكنها خشيت من أن تستغرب المرأة هذا السؤال، فبقيت صامتة.

وكأنما شعرت السيدة جونسون بما تفكر فيه فقالت: «سأطلب من جيسي أن تغلي بعض الأعشاب لكي تساعده على النوم إذا هو استيقظ عليك فقط أن تعطيه اياها ليشربها، وهو سيدرك من تكونين.»

ولكن كاريتا كانت تعلم أنه لن يعرفها طبعاً ما دام لم يرها طوال حياته.

ولكن هذا لم يكن بإمكانها التصريح به، بل قالت ببساطة: «إنني أعلم أن... زوجي سيكون شاكراً جداً حينما يستعيد وعيه.»

لقد تلعثمت حين نطقت بكلمة زوجي ولكن السيدة جونسون لم تلاحظ ذلك.

وصلتا إلى غرفة النوم حيث كانت هناك شمعتان بجانب السرير.

وكان واضحاً أن الغريب لم يتحرك منذ رأته آخر مرة.

ومرة أخرى، أخذت تفكر في مبلغ وسامته، ولكن، لماذا يسير في البراري وحده دون خادم معه، بينما يبدو عليه الغنى البالغ بهذا الحصان الفاخر الذي يملكه؟

وعندما خرجت السيدة جونسون، دخلت هي إلى غرفتها وأخذت تبدل ملابسها.

لا يمكنها إلا أن تشعر بأنها ستحس بخيبة أمل كبيرة إذا هي تركت المنزل هذا قبل أن يستعيد الغريب وعيه.

ثم أنها لن تعرف أبداً بعد ذلك من يكون، وإلى أين كان ذاهباً.

وأخذت تشكر حظها لتمكنها من أن تمضي ليلتها في راحة وأمان.

فقد كانت تعلم أن ذهابها وحدها إلى الخان سيدعو إلى استغراب صاحبه وتساؤله حيث أنه لم يكن أمراً عادياً.

ثم أنه لن يكون بإمكانها أن تنام الليل هناك متوقعة بين لحظة وأخرى أن يصل زوج أمها ويعثر عليها.

وعند ذلك سيعيدها مخفورة إلى منزله، يغمرها الإذلال والإحتقار.

وصرخت عند هذه الفكرة مذعورة، كلا، لا أستطيع احتمال ذلك... لا أستطيع.

وشدت حول كتفيها الملاءة والبطانية.

إنها في أمان هذه الليلة، رغم كل ما حدث وعليها أن تتمسك بالهدوء وتخطط لما عليها أن تقوم به بعد ذلك.

وما لبث الإرهاق أن أسلمها إلى نوم عميق.

* * *

عندما استيقظت كاريتا، كان الوقت صباحاً، وكان أول ما تبادر إلى ذهنها هو الذعر لنومها الثقيل هذا.

فلو أن الغريب كان قد نادى، ما كان لها أن تسمعه.

وهكذا نهضت من نومها بسرعة، وهرعت الى الغرفة الثانية.

كان ما يزال مستلقياً بنفس الوضع الذي كان عليه في الليلة الماضية. وتنهدت بارتياح.

كانت تسمع حركات في الطابق الأسفل ما ذكرها بأن المزارعين يبدأون يومهم باكراً.

وإذ فكرت في أن عليها أن تكون مثلهم، أخذت تغسل وجهها بالماء البارد وترتدي أحد الأثواب الموسلين التي كانت أحضرتها معها.

ثم وقفت عند النافذة وهي تفكر في أنه سيكون يوماً حاراً جداً.

وعندما نزلت إلى الطابق الأسفل، وجدت أن رجال الأسرة قد سبق وأنهوا تناول فطورهم.

ولم يكن في المطبخ سوى السيدة جونسون وإبنتها مولي، وجيسي.

وهتفت السيدة جونسون إذ رأتها: «آه، ها أنت ذي يا عزيزتي إني واثقة من أنك تشعرين بتحسن بعد نوم جيد.»

فابتسمت كاريتا: «لقد نمت جيداً فعلاً.»

فقالت المرأة: «عندما صعدت هذا الصباح لإلقاء نظرة،

أدركت أن زوجك لم يزعجك أثناء الليل، ولكنني أعرف أن المصاب بارتجاج المخ يبقى هادئاً، إلى أن يأخذ في إلقاء نفسه هنا وهناك وقد تملكه الهذيان.»

فسألتها كاريتا: «وماذا... عليّ أن أفعل عند ذاك؟»

فابتسمت لها المرأة وهي تجيب: «لا تبدأي الآن بإقلاق نفسك على الرجل، إنني سأعتني به كما أعتني بزوجي، وكذلك بيلي الذي لا ينفك يقع في المتاعب لا أستطيع أن أحصي لك عدد المرات التي ضمدت فيها الجراح.»

فابتسمت كاريتا.

إذا كانت السيدة جونسون ستعتني بالرجل الغريب، فلا حاجة بها إذن للقلق بشأنه، والتهمت طبقاً كبيراً من البيض واللحم ناولتها إياه جيسي.

ثم خرجت لتفقد الحصانين.

وكان يبدو عليهما الراحة التامة، ولكن الحصان الفحل كان مضطرباً قليلاً ولكن جاك كان لا يفتأ يربت عليه مطمئناً.

وقال لها: «سيكون غداً على ما يرام، إنه أفخر حصان رأيته في حياتي.»

وجعل كلامه هذا كاريتا تشعر بالغيرة لأجل زنبق. فدخلت مربطه لتظهر له حبها، وأخذت تخاطبه قائلة: «ليس هناك حصان أجمل منك.»

وعندما أخذ يحك أنفه بها، فكرت في أنه صديقها الوحيد في هذا العالم، فهي لا تطيق فكرة فقدانه، وقالت له تطمئنه: «إنني واثقة من أننا سنكون بأتم خير عندما نصل إلى نورفولك.»

ولكنها، في نفس الوقت، كانت تشعر بالخوف من ألا يرضى عمها بوجودها في بيته.

فقد كان أبوها يتحدث دوماً عن غرابة شخصيته. لقد سمعته مرة يقول: «كان يجب أن يكون من أحد نساك الهنود الذين يجلس الواحد منهم على قمة الجبل متأملاً في الحياة التي بعد هذه الحياة.»

فكانت أن سألته: «ولماذا يفعلون ذلك، يا أبي؟»

فأجابها: «لا أعلم.»

ومع هذا، فهي واثقة الآن من أن أباها الآن يفكر فيها من العالم الآخر.

وأخذت تناجيه من أعماقها: «إني بحاجة إلى ارشاداتك، يا أبي فأنا بأمس الحاجة إلى ذلك. إنك تعلم أن ليس بإمكاني الزواج من ستبري. ولكن إذا عثر عليّ زوج أمي، فسيرغمني بالضرب، على الخضوع.»

وارتجفت كعادتها كلما فكرت في ذلك.

ثم وضعت ذراعيها حول عنق زنبق، متشبثة به وكأنه هو كل ما بقي لها لكي يحميها من الرعب والتحقير الذي ينتظرها من زوج أمها.

وعندما عادت إلى البيت، سألت السيدة جونسون إذا كان هناك شيء يمكنها أن تقوم به لأجلها.

ففكرت السيدة جونسون لحظة، ثم قالت: «هل أنت ماهرة باستعمال إبرة الخياطة؟»

فأجابت: «نعم... طبعاً.»

«إذن، يمكنك أن تساعديني في الرفو. إن الفتيان يتلفون جواربهم بأسرع مما أستطيع إنجاز رفوها.»

فقالت كاريتا: «يمكنني بالطبع أن أقوم بذلك.»

فأحضرت السيدة جونسون كومة من الجوارب التي سبق وغسلت وكانت كلها تحوي ثقوباً.

حملتها كاريتا وصعدت بها إلى غرفة الغريب.

كانت حرارة الجو تتصاعد مع تقدم النهار.

وجلست عند النافذة ترفو، ومن وقت لآخر، كانت تلقي بنظرة نحو السرير.

كان الجوّ حولها يوحي بالأمان التام بطنين النحل خارج النافذة، وأصوات الدجاج البعيدة.

وكانت هناك أيضاً تغاريد الطيور في الحديقة الخلفية المليئة بالنباتات.

وأخذت كاريتا تتوقف بين فترة وأخرى، عن العمل لكي تنظر إلى الخارج وهي تظن نفسها لا بد انتقلت من عالم إلى آخر.

وفجأة، صدر من السرير صوت. فوضعت ما في يدها، ثم نهضت واقفة.

كان الغريب يتقلب في فراشه، وهو يحرك رأسه من ناحية إلى أخرى.

هرعت إليه، ولكنها رأت أن عينيه ما زالتا مغمضتين.

وكانت شفتاه منفرجتين، ففكرت في أن فمه قد يكون جافاً. وكانت قد لاحظت، عند دخولها، أن مغلي الأعشاب المهدئة التي كانت جيسي قد أعدته، هو في إبريق بجانب السرير.

فسكبت له نصف كوب، ثم وضعت ذراعها تحت رأسه لتساعده في رفعه عن الوسادة.

وحرّك هو يده، فخشيت أن يطيح بالكوب فيسكب ما فيه على الفراش.

عند ذلك قالت له بهدوء: «إنك عطشان، فاشرب. إن هذا سيفيدك وسيجعلك تعود إلى النوم.»

وتذكرت، وهي تقول هذا، أمها وهي تكلمها عندما كانت صبية صغيرة، تصاب بالمرض.

كانت واثقة من أن ما تفعله هو الصواب، إذ ربما، رغم غيابه عن الوعي، سيفهم بشكل مبهم ما يحدث.

وقد شرب فعلاً معظم الشراب الذي قدمته له، ولكنها، وهي تعيد رأسه إلى الوسادة، شعرت بحرارته مرتفعه نوعاً ما.

ذهبت إلى حوض غسيل الأيدي تبحث عن إسفنجة وعندما لم تجد، أسرعت إلى غرفتها حيث أحضرت إسفنجة ومنشفة ثم عادت إليه.

وأخذت تمسح وجهه بالإسفنجة برقة وتنشفه بالمنشفة.

كانت هي المرة الأولى التي تقوم بها بعمل كهذا.

شعرت كأنه صبي صغير وقع فأضر بنفسه وهو بحاجة إلى اهتمام ورعاية.

وسواء كان بفعل عنايتها به، أو هو مفعول مغلي الأعشاب، فقد بدا هادئاً.

وعندما نزلت لتناول الغداء، لم يتحرك، وعند العصر، صعدت السيدة جونسون لتطمئن عليه. فسألتها كاريتا: «أتظنين حرارته عاليه؟»

فأجابت المرأة: «غداً سيغسل زوجي جسده، فإذا كانت حرارته عالية، فستهبط عادة، ثم لا تنسي أن الجو اليوم شديد الحرارة.»

أجابت: «ربما سيسترد وعيه غداً، عند ذلك يمكنه أن يغتسل بنفسه.»

فهزت المرأة رأسها قائلة: «كلما طال نومه، كان ذلك أفضل ولا تزعجيه في نومه إذا لم يكن ثمة حاجة لذلك.» ابتسمت ووضعت يدها على ذراع كاريتا، وتابعت: «إنه رجل بالغ الوسامة، وأنا أعرف أنك تشتاقين إليه، ولكن عليك أن تصبري.»

فشعرت كاريتا بالخجل، ولكن لم يكن هناك ما تقوله.

وتابعت المرأة قائلة: «والآن تعالي معي إلى الأسفل. فها أنت ذي رفوت الجوارب لأجلي، ولهذا سنطهو شيئاً لذيذاً للعشاء.»

فقالت كاريتا: «أحب أن أساعدك في ذلك.»

فقالت المرأة باسمة: «بإمكانك ذلك طبعاً ولا تنسي عندما يستيقظ أن تطعميه لكي يقوى فهو سيكون بحاجة إلى ذلك، وسيتوقف عن الشعور بالغضب لسقطته تلك، فليس هنالك رجل يعترف بخطئه.»

وضحكت، بينما تبعتها كاريتا هابطة السلم، مفكرة في أنها، يوماً ما، عندما يصبح لديها زوج، ستستفيد من هذه النصائح.

ولكنها ما لبثت أن شعرت بالخوف من هذه الفكرة. وعادت تتمنى ألا يكون اللورد ستلبري، ليس اللورد ستلبري... أي رجل كان... ما عدا اللورد ستلبري.

* * *

كان العشاء في تلك الليلة لذيذاً بالنسبة إلى كاريتا.

وكانت قد ساعدت السيدة جونسون في إعداد عدة دجاجات صغيرة.

وكانت الحلوى بعد العشاء جيلي وسلطة فواكه من الحديقة. وكان فوقها قشدة مكثفة.

وذكرها هذا بأمها التي كانت تحب سلطة الفواكه مع القشدة.

وعندما صعدت إلى غرفتها، كانت تترنم بأغنية بصوت خافت.

كان الغريب ما يزال نائماً، بينما كانت السيدة جونسون قد وضعت إبريقاً آخر من مغلي الأعشاب بجانب سريره.

دخلت غرفتها وبدلت كاريتا ثيابها ثم نامت.

ولا بد أنها كانت قد نامت حوالي الساعة، عندما سمعت حركة من الغرفة المجاورة.

وكانت، قبل أن تنام، قد أزاحت الستائر عن النافذة فكان ضوء القمر يتدفق منها الآن.

نزلت من فراشها بسرعة، ثم ركضت إلى غرفة الغريب حيث كانت تركت شمعتين مضاءتين قرب فراشه، بناءً على نصيحة من السيدة جونسون وذلك لكي تجد طريقها إليه ان هو ناداها، فلا تفتش عن ضوء.

وبنظرة واحدة إلى السرير، أدركت كاريتا أن المريض كان شديد الإضطراب والتململ.

وفي نفس الوقت، كان يحاول أن يقول شيئاً، فسكبت مغلي الأعشاب بسرعة. ثم تقدمت إليه ورفعت رأسه عن الوسادة كما سبق وفعلت من قبل.

قالت له: «إنك بحاجة إلى أن تشرب وبعد ذلك ستعود إلى النوم ثانية.»

وكانت ترفع الكوب إلى شفتيه عندما رأت عينيه مفتوحتين.

كانتا رماديتين، ورأته يحدق فيها.

وكانت هي، على كل حال، غير متأكدة مما إذا كان يراها أم لا.

وعادت تقول: «إشرب هذا، وستشعر بتحسن.»

وقربت الكوب من شفتيه، ثم وبصوت عميق كأنه قادم من مسافة بعيدة، سألها: «من... أنت... وأين... أنا؟»

الفصل الرابع

استيقظت كاريتا على أصوات في الغرفة المجاورة عرفت منها صوت السيدة جونسون، وأدركت أنها لا بد تتحدث إلى الغريب.

وخطر لها أنه إذا أشارت المرأة إلى زوجته، بينما ليس لديه فكرة عنها، فسيكون هذا الأمر في منتهى الإزعاج.

وهكذا قفزت من فراشها وأخذت ترتدي ثيابها بسرعة بينما كانت تسمع السيدة جونسون تتحدث دون انقطاع وتضحك أحياناً.

وعندما اتجهت نحو الباب سمعتها تقول: «سأنزل وأحضر لك فطوراً، وستشعر بتحسن بعد أن تأكل شيئاً.»

وانتظرت كاريتا إلى أن سمعت وقع أقدام المرأة على السلم، عند ذلك دخلت الغرفة.

كان الغريب جالساً مستنداً إلى الوسائد خلفه. وعندما اقتربت منه، نظر إليها متسائلاً.

ولما كانت تشعر بالخوف، زالت من اقترابها منه، ثم قالت هامسة: «إنني سأوضح لك كل شيء... ولكنهم يظنون... أننا متزوجان... فأرجوك... لا تخبرهم خلاف ذلك...»

وكانت تتلعثم وهي تكلمه.

فقال الغريب ببطء: «متزوجان؟»

«نعم... ولكن أرجوك... أرجوك أن تنتظر... إلى أن نصبح بمفردنا... عند ذلك سأشرح لك كل شيء.»

ورأته ينظر إليها بارتياب.

وقبل أن تنطق بكلمة، أقبلت جيسي تحمل صينية اتجهت بها نحوه ثم وضعتها أمامه، ومن ثم كشفت الغطاء عن الطبق.

رأت كاريتا في الصينية بيضاً مقلياً مع اللحم كانت واثقة من أنه ينتظر ما مثل هذا الطعام هي أيضاً في المطبخ.

ودون أن تقول شيئاً، اندفعت تهبط السلم إلى المطبخ وهي تفكر بأن من الأفضل أن تدع الغريب يأكل بهدوء قبل أن تبدأ بالشرح.

كانت تتمتم: «ربما سيغضب... جداً. وفي أية حال، كلما أسرعت في الابتعاد من هنا... كان ذلك أفضل.»

وأكلت ما أمامها دون أن تتكلم، لما انتابها من القلق. ولكن، على كل حال، لم يكن ثمة حاجة بها للكلام حيث كان لدى السيدة جونسون الكثير لتقوله: «لا أظن رجلاً قوياً مثل زوجك سيبقى في الفراش وقتاً طويلاً، كما إنني لا أقول إن أعشاب جيسي هي التي جلبت له الشفاء، وإنما هي قوته الجسدية.»

وبينما كانت كاريتا تتأمل في هذا القول، نهض الغلامان وغادرا المكان.

كما كان المزارع قد سبق وخرج قبل نزولهما.

وانتهت السيدة جونسون إلى القول بأن زوج كاريتا يجب ألا يرهق نفسه بالعمل.

«يجب أن لا يركض المرء قبل أن يستطيع السير أولاً. هذا ما أقوله بعد سنوات كثيرة من الخبرة يجب أن لا تسرعا بالرحيل فنحن نحب أن تبقيا معنا. وهذه هي الحقيقة.»

فتمتمت كاريتا: «لقد كنت بالغة اللطف وأشكرك على هذا الفطور اللذيذ.»

وكان عليها أن تصعد إلى الغرفة الآن، ولكنها إذ كانت تشعر بالخجل، خرجت إلى الاسطبل لترى إن كان زنبق على ما يرام.

وكان يتحرك في مربطه متململاً، وكذلك كان الحصان الفحل.

وأدركت أنهما بحاجة إلى التريض.

فهمست في أذن زنبق: «قد يكون علينا أن نرحل هذا النهار.»

وشعرت بقلبها يغوص وهي تفكر في أنها سترحل وحدها باحثة عن الطريق إلى نورفولك.

وبعد أن حدثت نفسها بأنها يجب أن لا تكون جبانة، صعدت إلى الغرفة.

وما أن وصلت حتى كانت جيسي تخرج حاملة صينية عليها إبريق صغير يحوي ماء ساخناً وموس حلاقة مستعمل.

لقد كان الغريب يحلق ذقنه.

وعندما رأته، أدركت أنه يبدو أكثر وسامة مما كان أمس وهو غائب عن الوعي.

أغلقت الباب خلفها، ثم تقدمت ببطء، وقد جعل الخوف عينيها تكادان تملآن وجهها.

وعندما وصلت إليه، وجدت من الصعب عليها أن تتكلم.

ونظر إليها الغريب، ثم إذا به يبتسم بشكل غير منتظر، ثم يسألها: «والآن لماذا هذا كله؟ أظن من الأفضل أن تجلسي وتخبريني.»

كانت جيسي قد أزالت الضماد.

ومع أنه كان هناك كدمة واسعة على وجهه، فإن الجرح كان ملتئماً جزئياً.

ونظراً لشعورها بالضعف في ساقيها، فقد جلست شاكرة على كرسي بجانب السرير.

وابتدأت تقول مترددة: «لقد... لقد رأيتك تسقط...»

فسألها: «ماذا كان في الجانب الآخر من السياج، لقد شعرت وأنا أقفز فوقه بأنني كنت غبياً إذ لم أتأكد من أن بإمكان جوبيتر أن يقفز فوقه بأمان.»

فقالت: «جوبيتر؟ إذن فهذا هو اسمه. انه أروع حصان رأيته.»

«شكراً. إنني مسرور لإعجابك به.»

«إنني معجبة به طبعاً. ثم إن حصاني اسمه زنبق.»

فقال: «إنني مسرور جداً إذ علمت بأن جوبيتر لم يصبه ضرر.»

فقالت: «لقد اصطدم رأسك بحجر كبير.»

فسألها بدهشة: «وماذا يفعل الحجر في حقل ريفي؟»

«كان الفتيان يحفرون هناك حيث كانوا يظنون أنهما سيجدان ينبوع ماء تحت السياج مباشرة.»

ساد صمت قال الغريب بعده: «إنني لا ألوم أحداً سوى نفسي، وكلما أسرعت في الرحيل... كان ذلك أفضل.»

فأطلقت كاريتا صرخة قصيرة: «يجب ألا تتحرك بهذه السرعة. لقد كان لديك ارتجاج في المخ، وكنت غائباً عن الوعي لمدة ثماني وأربعين ساعة، كما أن رأسك ما زال مجروحاً.»

فرفع الغريب يده إلى جرحه يتلمسه بخفة محاذراً التسبب بأي ألم لنفسه، ثم قال: «إن قبول أصحاب المزرعة لنا هنا هو كرم أخلاق بالغ منهم. ولكن أخبريني لماذا اضطررت للقول إننا متزوجان؟»

فحوّلت كاريتا نظراتها عنه، ورأى هو الدم يصعد إلى وجنتيها.

وبدت له رائعة وجميلة، ولكن لا وقت لهذا التفكير الآن، فهو يريد فقط أن ينجو بنفسه من إيموجين.

فقد تذكّر عند استيقاظه من غيبوبته، كل ما كان حدث له. وبقي مستلقياً يفكر فيه إلى أن برزت له السيدة جونسون من الباب لترى إن كان استيقظ.

عند ذلك أزاحت الستائر، وابتدأت بالحديث.

وأجابته كاريتا على سؤاله بصوت خافت جعله يشعر بمبلغ توترها: «أنا كنت... هاربة... لأنني كنت وحدي... لم تكن لدي فكرة عن مكان أقيم فيه.»

فلم يتكلم الغريب، وتابعت هي تقول: «عندما سقط حصانك... ثم ألقاك أرضاً... فاصطدم رأسك بحجر... لم أعرف ما عليّ أن أفعل.»

فسألها: «وماذا فعلت؟»

«رأيت، لحسن الحظ، عربة مزرعة تسير في الطريق وفيها غلامان... وعندما صحت بهما منادية أقبلا نحوي.»

فقال: «وهكذا وضعاني في العربة ثم نقلاني إلى المزرعة.»

فأومأت برأسها وهي تقول: «قبل أن أقول شيئاً، افترضت السيدة جونسون أننا زوجان... ففكرت في أن هذا... يعني أنني وجدت مكاناً... أمضي فيه الليل.»

فابتسم الغريب قائلاً: «وهكذا كان الأمر بهذه السهولة.»

فتابعت هي تقول: «نعم... ثم إنني فكرت في أنه إذا كان هناك من... يبحث عني، فهو لن يتوقع أن يكون لديّ... زوج.»

فقال: «لقد دعتني السيدة جونسون باسم (السيد فريمان)... فهل هذا هو الاسم الذي اخترته أنت لي؟»

«لقد كان... أول اسم خطر في بالي.»

«أليس هو اسمك؟»

«كلا.»

«وهل ستخبرينني باسمك الحقيقي؟»

فساد صمت قصير حوّلت أثناءه نظراتها عنه مرة أخرى قبل أن تقول: «أظن من الأفضل أن يبقى اسمي سراً. إنني

شديدة الخوف... من أن يعلم أولئك الذين يبحثون عني، بوجودي هنا.»

وارتجف جسمها وهي تقول ذلك.

وعاد الصمت بينهما إلى أن قال الغريب: «أراك شديدة الخوف، ولكن كان يجب عليك ألا تسافري بمفردك. أتحبين أن تخبريني عن وجهة سفرك؟»

فترددت كاريتا قبل أن تقول: «إنني أحاول البحث عن طريق الوصول... إلى عمي الذي يعيش في... نورفولك. ولكنني أخبرت السيدة جونسون أننا ذاهبان إلى إيسكس... وهذا في حالة سألها أحد عني...»

فقال بهدوء: «لا أظن ذلك محتملاً. إذ يبدو لي أنك محوت آثارك بمهارة تامة.»

«ولكن، ما زال أمامي الطريق طويلاً... وقد لا أكون في مأمن.»

لقد كانت تفكر في أن عمها قد يرفض بقاءها معه، وبالتالي يبعدها عنه.

وكذلك، قد يقتفي زوج أمها آثارها إلى هناك، ثم يحاول إقناع عمها في أن من المناسب لها أن تتزوج ذلك الرجل الثري ذا المركز الهام.

ولم تكن تدري أن الرعب في عينيها والتوتر في جسدها كانا واضحين لهذا الغريب.

وبعد لحظة قال في صوت أكثر رقة مما كان: «ألا يمكنك أن تؤمنيني على سرك؟ ربما تمكنت من أن أجد حلاً لمشكلتك.»

فقالت بذعر: «ليس هناك حل إلا إذا كان... إخفائي من... زوج أمي.»

فقال: «إنك إذن هاربة من زوج أمك؟»

فشعرت كاريتا بحماقتها، ولكنها لم تستطع أن تتراجع عن كلامها، وهكذا أومأت برأسها دون أن تتكلم.

سألها: «هل أمك ميتة؟»

«نعم. وهذا هو السبب في أن زوجها هو الوصي علي الآن.»

ساد الصمت لحظة، ثم عاد يقول: «إنني أحاول أن أخمن، وقد أكون مخطئاً، ولكنني أظن أن زوج أمك يريدك أن تتزوجي رجلاً لا تريدينه.»

فحملقت كاريتا فيه: «وكيف عرفت هذا؟»

فأجابها: «لقد سبق وأخبرتك. إن بإمكاني حل المشاكل.»

وغيّر وضعه بين الوسائد لطلب المزيد من الراحة، ثم تابع يقول: «أظن، بما أنك جعلت بيننا رباط الزواج الوثيق ذاك، عليك أن تدعيني أساعدك، وهذا أقل ما يجب عليّ نحوك بعد أن أنقذتني.»

فقالت: «على كل حال، لو كنت تابعت طريقي لكان من الممكن أن يعثروا عليك في النهاية.»

«هذا غير مؤكد. فأن أبقى في الحقل أثناء الليل قد يسبب لي ضرراً كبيراً. وقد يسرق شخص ما جوبيتر.»

فصرخت قائلة: «لو حدث هذا لكان أمراً فظيعاً. إنني أدرك ما سيكون عليه شعوري لو أن شخصاً سرق زنبق مني.»

«هذا ممكن جداً إذا سافرت وحدك.»

فحملقت فيه: «لم يخطر هذا في بالي قط. لقد جعلتني الآن أكثر خوفاً مما كنت.»

فقال: «بدلاً من هذا الشعور بالخوف. أعلميني بكل شيء، بدءاً باسمك، وهذا طبعاً شيء تتوقع السيدة جونسون مني أن أعرفه.»

«إنه... كاريتا.»

«أهو اسمك حقاً؟»

«نعم. إنه اسمي.»

فقال: «وهو اسم جميل جداً. أما اسمي فهو دارول.»

«هذا اسم غير عادي.»

«ألم تسمعيه من قبل؟»

«لا أظن ذلك.»

«والآن، أرى أن نبدأ أولاً بأن تخبريني لماذا ترفضين الزواج من ذلك الشخص الذي اختاره لك زوج أمك؟»

«إنه فظيع... فهو كبير السن جداً... وقاسي القلب. يقولون إن زوجته الأولى ماتت لأنه ضربها حتى الموت... وهو أيضاً يعامل جياده بقسوة.»

وكانت تتكلم بصوت منخفض حتى لم يكد يسمعها جيداً. ولكنه أدرك أن كل كلمة تلفظت بها كانت صادقة.

شعر بأنها لو كانت كاذبة لعلم ذلك في الحال. كما أنه كان يعلم أن ليس ثمة امرأة، مهما بلغت مهارتها في التمثيل، لها القدرة على أن تصطنع تلك القشعريرة التي شملت جسدها.

ولا الرعب الذي جعل عينيها تبدوان داكنتين.

وبعد أن انتهت من حديثها، سألها: «لماذا يريدك زوج أمك أن تتزوجي شخصاً كريهاً مثل هذا؟»

«لأنه غني جداً... ومهم، وهذا يفيد زوج أمي اجتماعياً إذ بإمكانه أن يقول إنه... صهره.»

وعاد إلى مخيلتها، وهي تقول ذلك، البهجة التي رأتها في عينيه وهو يقول إن اللورد يريد أن يكون صهره.

فقال: «وهكذا هربت. أظن هذا كان عملاً حكيماً منك.»

«إذن فقد فهمتني... فهمتني حقاً. كيف يمكنني أن أتزوج رجلاً كهذا؟ ثم إن زوج أمي قال إنه، إذا لم أوافق على هذا الزواج، فسيرغمني على ذلك بالضرب.»

وبدا الآن الرعب في صوتها واضحاً لا شك فيه.

فسألها ذاهلاً: «أتظنينه يعني ذلك حقاً؟ هل سبق وضربك من قبل؟»

فأجابت: «مرة واحدة... عندما كنت في السادسة عشرة... وكان ذلك شيئاً فظيعاً مهيناً. ولكنه كان مسروراً وهو يضربني... نعم لقد شعرت بذلك... وهو يريد أن... يكرر هذا مرة أخرى.»

وتدفق الدمع من عينيها وأخذ جسدها بأكمله يرتجف. فقفزت من كرسيها وذهبت إلى النافذة حيث وقفت عندها تنظر إلى الخارج وهي تجاهد في سبيل تمالك نفسها.

لم تكن تتصور أن الحديث عن ذلك سيؤلمها إلى هذا الحد.

ولكنها الآن تفتح صدرها لهذا الرجل لأول مرة، مفرغة ما كان كامناً في نفسها والذي بدا لها الآن أسوأ مما كان من قبل.

وأخذ الإيرل، وهو مستند إلى الوسائد خلفه، ينظر إلى أشعة الشمس تنعكس على شعرها، وإلى نحافة جسدها في ثوبها الموسلين الذي ترتديه.

ولم يستطع أن يتصور شخصاً، مهما بلغ به الفساد، يضرب فتاة بمثل هذه الرقة والهشاشة.

وبعد دقائق، قال: «تعالي يا كارينا، ودعينا نتدبر أمر مساعدتي لك على الهرب.»

فاستدارت تنظر إليه وقد بدا وكأن عينيها قد امتلأتا بأشعة الشمس.

وسألته: «هل صحيح هذا؟ هل صحيح ما تقوله؟»

فأجاب: «إنه صحيح طبعاً. ولكن علينا أن نكون في منتهى الحذر والمهارة في هذا الأمر.»

فعادت راكضة نحوه وهي تقول: «إذا كنت... ستساعدني، ربما سيخدمني الحظ في الابتعاد.»

فقال بحزم: «طبعاً عليك أن تبتعدي. وكما قلت، من غير المحتمل أن يبحث عنك زوج أمك باعتبار أن لك زوجاً.»

فقالت: «هل تفهمني حقاً؟ إن هذا رائع جداً منك... جداً.»

وكان الإيرل قد اعتاد أن تخبره النساء كم هو رائع، ولكنه رأى الآن أنه لم يسمع قط من قبل هذا الكلام بمثل هذه اللهجة المخلصة.

قال: «أما ما يجب علينا أن لا نفعله، فهو الوقوع في أي خطأ. والآن أخبريني كم قطعت من المسافة أمس؟»

فقالت: «لا... لا أعلم بالضبط. لقد غادرت المنزل عند الفجر حين لم يكن أحد مستيقظاً. وعندما ذهبت إلى الإصطبل، كان السائس الوحيد في الإصطبل نائماً... فلم يسمعني وأنا... ذاهبة.»

فابتسم الإيرل بينه وبين نفسه.

ذلك أنه كان هو أيضاً قد غادر في نفس الوقت حاسباً أن أمامه أقل من عشرين ميلاً ليصل إلى منزله.

أما وصول هذه التي تكاد تكون طفلة، إلى نورفولك، فهو شيء آخر مختلف تماماً.

كان يفكر في أن أفضل ما يمكن عمله، هو أن يجد لها في قريته مكاناً تمكث فيه.

فهو لا يمكنه الذهاب إلى القصر وبصحبته فتاة صغيرة رائعة الجمال دون أن يثير عاصفة من الشائعات فكر في أنه إذا وجد لها مكاناً تمكث فيه، فهو سيتصل بقريبها في نورفولك لكي يأتي ويأخذها بنفسه بدلاً من أن تسافر إليه وحدها.

ثم سألها قائلاً: «أخبريني عن عمك. أتظنين سيكون بإمكانه أن يمنع زوج أمك من إرغامك على ذلك الزواج الذي يخيفك؟ وهل سيوفر لك الفرصة للزواج من رجل تحبين الزواج منه.»

فأجابت بصوت خافت: «الحقيقة هي... إنني لم أر عمي أندرو منذ وقت طويل جداً. لقد كان أبي يقول دوماً إنه رجل غريب الأطوار... فقد انعزل عن العالم كلياً.»

فأجفل الإيرل، وقال: «لقد سمعت عن أشخاص مثله رغم إنني لم أعرف أحداً منهم.»

فقالت: «ربما رفض... استقبالي. وعند ذلك عليّ أن أجد مكاناً آخر... أذهب إليه، أو قد أجد وظيفة أو شيئاً من هذا القبيل.»

فسألها: «أليس لديك نقود؟»

فأجابت: «كلا. ولكنني أحضرت معي حليّ أمي. وسأعيد إليك ما تدفعه لأجلي.»

فقال: «هذا يذكرني بما حدث للنقود التي كانت معي.»

فقالت بسرعة: «لقد أقفلت عليها درجاً في غرفتي كما قالت لي السيدة جونسون أن أفعل.»

فقال: «إذن، فلا لزوم لقلقك بالنسبة لما علينا أن ندفعه للسيدة جونسون. أما مجوهراتك فمهما كانت غالية الثمن فهي لن تدوم طويلاً.»

فقالت: «أعلم ذلك. ولكنني واثقة من أنني سأجد عملاً أقوم به. ربما تعليم الأولاد... فأنا متعلمة إلى حد جيد.»

فلم يقل الإيرل شيئاً. فقد كان يراها أصغر كثيراً من أن تكون معلمة أو مربية.

كما كان يعلم أن هاتين الوظيفتين زهيدتا الأجر. كما كان يعلم أيضاً أن ليس ثمة امرأة مكتملة الإدراك تقبل بأن تضع في منزلها فتاة بمثل جمالها.

قالت كاريتا: «أرى أنك تظن أن من الصعب عليّ أن أجد عملاً، ولكنني مع الاقتصاد، واثقة من أن مجوهرات أمي ستكفيني وقتاً طويلاً... وربما عامين... وعند ذلك سأصبح أكبر سناً.»

فقال: «لا أظن أن عامين يشكلان فرقاً كبيراً وفي نفس الوقت، يا كاريتا، يجب أن يكون معك أحد يحرسك ويعتني بك.»

فقالت: «لقد كنت فكرت، وفكرت. ولكن ليس لديّ سوى عمي أندرو. ولكن بما أنه رجل انطوائي... ربما لن يقبلني عنده.»

فقال: «إنها مشكلة حقاً. ولكنني لا أظن ان ليس بإمكاننا إيجاد حل لها. إنك الآن في أمان هنا. وعندما نغادر سأجد لك مكاناً تمكثين فيه إلى أن تبدإي الجزء الثاني من رحلتك إلى نورفولك.»

فقالت: «أشكرك... آه، كم أشكر لطفك هذا. لقد كنت خائفة من الذهاب إلى خان... فأنا أعلم أنهم سيستغربون كوني بمفردي... وكنت أكاد أموت خوفاً من أن يسأل عني زوج أمي بعد أن أغادر الخان، ثم يمسك بي.»

وعاد الخوف إلى صوتها، ورآها ترتجف.

فقال بهدوء وتمهل: «إن ما ينبغي علينا هو أن نرتاح ونمتع أنفسنا إلى أن نترك هذا المكان وأنا أوافق السيدة جونسون على أن من الخطأ أن أغادر هذا المنزل اليوم. إن عليّ أن أرى مبلغ قوة صحتي عندما أستيقظ غداً صباحاً.»

فقالت متوسلة: «أرجوك... لا تسرع في مغادرة السرير... إنني لا أفكر فيك فقط... بل في نفسي أيضاً.»

فأجاب: «هذه هي الصراحة بكل معناها. هل رأيت جوبيتر هذا الصباح؟»

فقالت: «نعم. لقد ذهبت لرؤيتهما، هو وزنبق قبل مجيئي

إليك. لقد كان الاثنان متململين، ما رأيت معه أنهما بحاجة إلى رياضة.»

فقال الإيرل: «إن جوبيتر لا يحب طبعاً أن يحجز في الاصطبل طوال الوقت. هل سألت المزارع عما إذا كان لديه مرعى للخيل تسرح فيه بأمان؟»

فوقفت كاريتا وهي تقول: «سأهتم بهذا الموضوع.» وكانت قد شعرت لحظة بالخوف من أن يطلب منها ركوب الجوادين. وكان خوفها من أن يراها أحد.

ولكنها ركضت الآن لتخبر السيدة جونسون برغبة دارول.

فقالت المرأة: «إنني أعرف أن أول ما يفكر فيه الرجل هو حصانه الذي يتمتع بالمكان الأول في نفسه، أما نحن النساء المسكينات، فنأتي في المكان الثاني.» وضحكت قبل أن تتمكن كاريتا من الكلام، ثم أخبرتها عن مكان زوجها المزارع.

وهكذا أصبح الحصانان طليقين في مرعى يصعب عليهما الهرب منه.

وأخذا يركضان في الأنحاء مظهرين سرورهما بحريتهما هذه، بينما أخذت هي تنظر إليهما بعض الوقت، لتعود بعد ذلك إلى دارول ولتخبره بالترتيبات التي اتخذت.

دخلت غرفته وقد توهجت وجنتاها وتشعث شعرها بفعل الريح، وهي تبتسم قائلة: «إن زئبق وجوبيتر يستمتعان تماماً. وقد طلبا مني أن أشكرك بالنيابة عنهما لتفكيرك فيهما.»

فضحك الإيرل، بينما جلست هي على الكرسي بجانب سريره.

وتعمد هو أن يتجنب العودة إلى الحديث عن متاعبها، إذ كان يعلم ما يسببه ذلك من شعور لها بالأسى.

وبدلاً من ذلك، أخذا يتحدثان عن مجموعة من المواضيع المختلفة.

ودهش إذ رأى اطلاعها الواسع بالنسبة إلى سنها. وتذكر كيف أنه عندما يكون مع إيموجين، فإن الحديث بينهما لا يخرج عن الملاحظات التافهة أو الخوض في سير الناس.

فقد كانت إيموجين، ككل النساء اللاتي عرفهن، ينحصر اهتمامها في موضوع واحد هو الحب بالنسبة إليها.

وأخبرته كاريتا أن أباها كان ضابطاً بحرياً، ولكن دون أن تفصح عن اسمه.

وقد وصفت بالدقة العمل الذي كان يقوم به في بورتسماوث. وكذلك عن الأماكن التي كان زارها أثناء عملية في البحر.

وقال الإيرل في النهاية: «وهكذا توفي في الهند الغربية.»

«لقد كان كتب إلي يحدثنا أنا وأمي، عن المكان ذاك. وقد وجدنا كتباً تصف الجزيرة التي كانت سفينته ترسو في مينائها، وكذلك جزراً أخرى رائعة الجمال.»

فقال الإيرل: «إنه مكان أريد أن أذهب إليه أنا نفسي يوماً ما.»

عند ذلك أخذت كاريتا تحدثه عن جزيرة هاييتي وتقاليد شعبها الغريبة.

كذلك حدثته عن الأشياء العجيبة التي كانت تحدث في الجزر الأخرى.

قالت: «هل تعلم أن الامبراطورة جوزيفين قد ولدت في إحدى جزر المارتينيك؟ لقد تكهن لها كل من رآها بأنها، لجمالها، سيكون لها مستقبل باهر.»

فقال: «وصدقت تلك التكهنات إذ أصبحت امبراطورة. هل تحبين ان تعرفي ما يخبىء لك المستقبل؟»

فأجابت: «كلا طبعاً. انا لا أحب أن أعرف مستقبلي.»

فسألها: «ولم لا؟»

«إنني أحب أن أفكر في أن مستقبلي سيكون سعيداً وطبعاً أريد أن أكون مثل أمي، فأحب رجلاً يحبني ونتزوج ونصبح سعداء بعد ذلك.»

كان في صوتها نبرة حالمة لم تغب عن إدراك الإيرل الذي قال: «أفرضي أن الرجل الذي ستحبينه كان فقيراً ولا أهمية اجتماعية له؟»

فسألته: «ولماذا يهمنا هذا الأمر ما دمنا معاً؟»

وعندما رأت الإيرل ينظر إليها متشككاً، قالت: «عندما تزوج أبي وأمي لم يكن لديهما من المال سوى القليل. ولكنهما كانا في منتهى السعادة حتى ان كل منزل أقاما فيه، كان يبدو لهما مميزاً.» وتنهدت، ثم تابعت تقول: «هذا ما علمته عندما كنت صبية صغيرة. ولكنني عندما جئت مع أمي لنقيم في منزل زوجها، أدركت أن المنازل الفخمة والخدم والثياب الجميلة، كل هذا تافه لا قيمة له إذا لم يكن هناك حب يربط بين الزوجين.»

فالتوت شفتا الإيرل قليلاً.

لقد كان يظن، كما كان يظن من قبل، أن نساء كثيرات مثل إيموجين، قد كاشفنه بحبهن وإعجابهن.

ولكن من المؤكد أنهن لم يكن بمثل تلك الفصاحة لو لم يكن لديه المال واللقب النبيل.

ثم قال: «أتعتقدين حقاً أنك لو وقعت في الغرام الآن، ولنفرض مع أحد أبناء المزارع، فإنك على استعداد للزواج منه والقيام بكل الأعمال الصعبة التي تقوم بها السيدة جونسون في بيت المزرعة؟»

فقالت: «إنني طبعاً على استعداد لذلك. وكما قالت أمي مرة، إن الشخص الذي يحب، يحتضن القمر والنجوم بين ذراعيه وعدا ذلك، فلا شيء ذو أهمية.»

فقال: «إذن، فكل ما بإمكاني قوله، هو أنك فتاة غير عادية.»

فاحمر وجهها وتمتمت: «أظنك تضحك مني.» ثم أضافت بعد برهة: «إنني أعلم الآن أن أمي لم تتزوج مرة أخرى بعد أبي إلا لأجلي. فقد كنا فقراء جداً حتى الجوع غالباً. وكانت قلقة بشأني.»

ثم تابعت بصوت أكثر انخفاضاً: «عندما ماتت أمي، حلمت بأبي مرة أخرى... فأدركت أنا مقدار شوقها إليه، رغم أنها كانت في منتهى الإرتياح والغنى مع زوجها الثاني.»

وبدا في صوتها الخوف. فقال الإيرل بسرعة: «حسناً، إننا نتمنى، يا كاريتا، أن يحدث هذا لنا. نحن الاثنين، وإذا كنت هاربة، فأنا كذلك وهكذا يجمعنا أمر واحد، فعلينا إذن أن نتوخى بالغ الحذر من أن يظفروا بنا.»

فسألته بدهشة: «هل أنت... هارب، ولكن ممن؟ ومن هو الذي يهدّدك؟»

ولما لم يجب، قالت: «أظن... ربما كان... إمرأة.»

فقال: «ها إنك تحاولين إظهار فطنتك، وهذا خطأ. إن لديك أسرارك ولي أسراري.»

وكان في هذه الأثناء يفكر في أن زوج أم كاريتا يبحث عنها، فلا شك أن إيموجين تبحث عنه هي أيضاً. فهو يعرفها لا تستسلم للهزيمة بسهولة.

إنها ستبذل ما في وسعها لكي تجعله في وضع يصعب عليه معه رفض الزواج منها.

لقد كان صمم على العودة إلى بيته منذ مدة طويلة وذلك لكي يوصي خدمه بعدم السماح لإيموجين بالدخول مهما كانت الظروف. وكان لهذا التصرف أن يطلق الشائعات، ولكن ليس أمامه أي حل آخر. وكان يفترض أنها، حالما تعلم بهربه، ستتوجه إلى منزله في لندن وعندما لا تجده هناك، ستذهب حالاً إلى «برليوري» قصره في الريف.

وشعر لهذه الصعوبات التي تواجهه وكأنما سكب عليه دلو ماء بارد.

وأخذ يسأل نفسه مرة بعد أخرى، ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

إن بإمكانها أن تدعي بأنه هجرها مما سيثير شعوراً بالعطف عليها ولكن بين أصدقائها هي.

أما أسرته وأفراد المجتمع المحترمون فسيرون أنه تصرف بمنتهى التعقل.

وتساءل كيف كان بإمكانه أن يتصور أنها ستحاول

إرغامه على الزواج منها، متخذة كل أولئك الحاضرين شهوداً على الاحتفال؟

كان جميع من دعتهم إلى الحفلة أصدقاءها هي وليس أصدقاؤه، وكانوا معروفين في المجتمع بالوقاحة والتفاهة.

وهم أيضاً، سيثرثرون.

وتملكه الألم وهو يتصور اسمه يتمرغ في التراب وفكر في الضحكات التي ستنطلق من أفواه أولئك الجالسين في النوادي وهم يتندرون بما حدث له.

وفكر في أن أفضل ما يمكنه عمله، هو السفر إلى الخارج.

ولكنه عاد ففكر في أن ذلك يجعل الأمور أسوأ مما هي عليه الآن.

ذلك أن لا أحد يهرب للإختباء في الخارج إلا إذا كان قد اقترف ذنباً ما.

فهو لا يريد أن يقول أحد انه هرب من وضع سيء قد جلبه لنفسه.

ولأنه كان بالغ الكبرياء والأنفة، كان خائفاً من أن تجلب له أية خطوة يخطوها، مزيداً من الشؤم.

وطال صمته ما جعل كاريتا تقول: «عندما ينتابني القلق الذي ينتابك الآن، فإن أفضل ما أقوم به هو الدعاء.»

فسألها بدهشة: «الدعاء؟»

فقالت: «لقد دعوت كثيراً لأجد العون، عندما أخبرني زوج أمي أن عليّ أن أتزوج ذلك الرجل، وجدت الحل بعد كثرة دعائي، وهو أن أهرب. كان ذلك يبدو صعباً، ولكن ما

أن تملك ذهني حتى شعرت كأن أحداً قد خطط لي كل شيء.»

وهنا انتبهت إلى أن الإيرل ينظر إليها وفي عينيه ما يشبه السخرية، فقالت: «قد يبدو لك قولي هذا غريباً... ولكنني عندما دعوت مرة أخرى للاهتداء إلى مكان أبيت فيه، حدث لك ذلك الحادث، وعندما جئت إلى المنزل معك، تمكنت من المبيت لأنهم ظنوني زوجتك.»

وسكتت لحظة ابتسمت بعدها وهي تقول: «عند ذلك أدركت أن هناك من يساعدني ويرعاني وأن خوفي ذاك كان غباء مني.»

وكان الإيرل ينظر إليها.

كان يعلم أنها تحدثه بكل ذلك لا لشيء إلا لأنها تظن أن الدعاء سيساعده هو أيضاً.

فقال بعد لحظة: «شكراً لإخبارك لي بهذا، يا كاريتا. والآن وأنا أفكر في ما قلته، يلوح لي أنه مضى وقت طويل منذ دعوت كما علمتني أمي. وربما هذا هو السبب في أن حفلت حياتي بأخطاء عدة.»

فقالت: «إذا أنت دعوت من كل قلبك، فأنا واثقة من أنك ستسير في طريق الصواب، ولكن ليس بالطريقة التي تتوقعها.» وانفجرت في ضحكة طفولية وهي تتابع: «من كان يتصور انك وحصانك جوبيتر، ستكونان الجواب لدعائي؟ ربما سأتمكن، يوماً ما، من أن أساعدك كما ساعدتني رغم أنك الآن لا تفكر في هذا.»

فقال: «هذا ما أرجوه. فإذا ما دعوت لنفسك يا كاريتا، ادع لي أنا أيضاً.»

فقالت ببساطة غير متكلفة: «طبعاً سأفعل ذلك. وفي الواقع، لقد سبق ودعوت شاكرة لأنني أصبحت السيدة فريمان.»

وضحكت، فضحك هو أيضاً.

لقد كان هذا حديثاً غير عادي يدور بينه وبين فتاة صغيرة مثل كاريتا.

أو، في الواقع، أي امرأة، ليست بسن والدته.

لقد تذكر الآن كيف علمته أمه الدعاء عندما كان صبياً.

وعندما كان غلاماً ناشئاً، لم يكن ثمة حاجة به إلى الدعاء لأن كل ما كان يرغب فيه، كان يسقط بين يديه كثمرة ناضجة.

ولم يحدث له سوى الآن هذا الوضع الذي فرضته عليه إيموجين فهرب منه.

وكلما ازداد تفكيره في هذا الأمر، أدرك كم كان غبياً عندما لم يدرك من قبل أنها كانت مصممة على الزواج منه.

إن باستطاعته أن يتصور تماماً ما قد يكون قيل في منزل إيموجين بعد اكتشاف هربه، وكيف كانت ثورتها وغضبها لذلك.

وكان هذا ما زاد من تصميمها على إعادته.

ففي المرة القادمة لن يكون أمامه سبيل للنجاة.

ومرة أخرى، أخذ يدمدم متسائلاً عما يمكنه عمله.

وإذ رأى كاريتا جالسة تنظر إليه بكل براءة، حدث نفسه بأنها على صواب، وأن الدعاء هو الذي سيساعده الآن.

وقال لكاريتا: «لقد كنت أفكر في ما قلته لي، ولديّ شعور بأن دعاءك، سيساعدنا نحن الاثنين على النجاة، وتمنع أي شخص من الإمساك بنا.»

فابتسمت كاريتا، وقالت: «إني واثقة من أنك على صواب، وأرجوك... أن تدعني أمضي معك مدة أطول. وذلك لاحتمال أن التنين ما زال يلاحقنا.»

ولمع في ذهن الإيرل أن هذا هو أصدق وصف لإيموجين.

فقال: «في كتاب القصص يتغلب الخير على الشر، ويقتل الفارس الأبيض التنين الشرير، وهذا ما يجب أن نقوم به، يا كاريتا، ولكن في حالتي أنا، هنالك تنينان.»

الفصل الخامس

رحل الإيرل وكاريتا عن المزرعة في الصباح الباكر. لقد كان مصمماً على الوصول إلى قصره برايبوري بأسرع ما يستطيع وذلك لكي يعلم ما حدث بعد فراره من منزل إيموجين.

وهو طبعاً لم يذكر هذا لكاريتا.

كل ما قاله هو انه سيعثر لها على مكان تقيم فيه عندما يصل إلى القرية التي يعيش فيها.

وكانت السيدة جونسون قد ودعتهم وداعاً حسناً وهي لا تنفك عن ذكر قدر استمتاعها، وأسرتها، باستضافتهما في المزرعة.

وقد حملتهما صرة كبيرة تحتوي على غدائهما، وهي تقول: «لا تبددا نقودكما في الخانات، فهم لا يقدمون سوى اللحم الغليظ والجبن القديم الجاف وسيعجبكما ما زودتكما به هذا.»

فقالت كاريتا: «إني واثقة من ذلك وشكراً جزيلاً لك، يا سيدة جونسون، لضيافتك الكريمة لنا.»

فقبلتها السيدة جونسون بعطف وهي تقول: «انتبهي إلى نفسك، أو بالأحرى، قولي لزوجك أن يرعاك جيداً.»

ونظرت إلى الإيرل وهي تقول هذا، فقال: «إني أعد بأن أفعل ذلك.»

ثم انطلقا في سيرهما.

وكان الإيرل قد أصرّ على أن يدفع نقوداً للسيدة جونسون التي مانعت في البداية، ولكن كاريتا أدركت أنها قد هزمت عندما لمحت الورقة النقدية التي دسّها في يدها.

والتي كانت بمبلغ عشر جنيهات، ولم تكد تصدّق أن هناك من يمنح بمثل هذا السخاء.

كان الجوادان نشيطين، فأخذا في العدو فترة، مما خفف بعضاً من الحيوية التي تمتلكهما. وبعد ذلك أخذا يسيران باعتدال.

وكان الإيرل يعلم أنه سيصل إلى قصره في منتصف العصر.

وعندما حلّ موعد الغداء، كان الإثنان جائعين إذ كانا قد تناولا فطوراً مبكراً عن المعتاد.

ووجد الإيرل مكاناً جميلاً على رابية تشرف على وادٍ صغير وكان قائماً على بقعة معشوشبة في آخر غابة هناك.

تركا الجوادين طليقين، وقال الإيرل لكاريتا: «لاأدري بالنسبة إلى جوادك زئبق ولكن جوبيتر يأتي عندما أصفر له بفمي.»

فأجابت كاريتا: «إنك تهين زئبق، فهو يأتي إليّ حالما أناديه منذ المرة الأولى التي امتطيته فيها. وأنا واثقة من أنه يفهم كل كلمة أقولها له.»

فضحك الإيرل، ثم جلسا على العشب تحت شجرة دردار.

فتحت كاريتا الصرة التي زودتهما السيدة جونسون بها.

وكانت المرأة كريمة حقاً فقد كان هناك شرائح من اللحم والدجاج، هذا إلى قطعة كبيرة من عضلة قائمة خروف، كما كان هناك صلصة تتلاءم معها قد وضعت في كوب صغير ذي غطاء وكذلك سلطة من الخس والطماطم.

أخرج الإيرل من السرج زجاجة شراب التفاح وكوبين، وضحكت كاريتا إذ رأت ذلك: «يبدو أنك غادرتهم متزوداً بأكثر مما وصلت به إليهم، لم أكن اعلم أنك احضرت من مزرعة جونسون شيئاً لذيذاً كهذا.»

فقال يغيظها: إنها من ثقل الوزن بحيث تعيق جوبيتر عن سرعته ما يسمح لزئبق باللحاق به.»

فقالت: «ها أنت ذا مرة أخرى تبخس من قدر زئبق، والذي هو أجمل جواد وقعت عليه عيناي.»

فقال: «وأنا طبعاً معجب بجوادي جوبيتر. وفي وقت آخر سنجري سباقاً بينهما ونرى من هو الفائز منهما.»

لم تجب كاريتا، بل كانت تفكر بأنها لن تجتمع بدارول مرة أخرى في المستقبل.

ذلك أنها، ما أن تصل إلى القرية التي وعدها بأن يجد لها فيها مكاناً تبيت فيه، حتى يتوجب عليها أن تنتقل منها مرة أخرى، ذلك أنها لم تكن تريد أن تكون عبئاً عليه.

يجب عليها أن تعثر على عمها آملة أن يقبل بسكناها في بيته.

كذلك كان يساورها شعور مزعج بأن قرية دارول هي قريبة من المكان الذي يعيش فيه زوج أمها.

فقد كانت واثقة من أنه لن يكف أبداً عن البحث عنها.

أما الآن، فقد كانت تتكهن بأنه يقدم إلى اللورد ستليري اعتذاراً لبقة لغيابها، ولكنها، على كل حال، لم تفصح عن أفكارها هذه.

فقد خشيت أن يبدو في هذا شيء من نكران الجميل لدارول بعد أن تظاهر بأنه زوجها. هذا إلى انه وعد بمساعدتها في المستقبل.

وحدثت نفسها بأنه شاب بالغ الوسامة وبأنها واثقة من أن لديه بعضاً من أقاربه ممن لابد تقع مسؤوليتهم على عاتقه، فهي لا تريد أن تضيف إليه عبئاً جديداً يتمثل بها.

وكان الإيرل يتناول طعامه متلذذاً وهو يقول: «الحق مع السيدة جونسون. فما كنا لنجد في أي من الخانات التي مررنا بها طعاماً كهذا.»

فقالت: «إننا لم نمر بخانات عديدة.»

فقال: «هذا لأننا قد اتخذنا طريقنا في الحقول، ولكن في الجزء التالي من رحلتنا سنمر بقرى اكثر عدداً.»

ولكنه، على كل حال، كان مصمماً على تجنب القرى تلك، إذ كان يدرك أن اكثر سكانها يعرفونه.

وكان يتساءل عما إذا كان ينبغي أن يخبر كاريتا بحقيقته... ولكنه في النهاية فضل السكوت.

لقد كان يحب إلفتها وبساطتها، فهي لم تعد تشعر نحوه بالخجل والإرتباك، بل أخذت تتحدث إليه بشكل طبيعي غير متكلف لم ير مثله في النساء الأخريات.

وطبعاً، كانت النساء اللاتي تعرف إليهن في لندن ذوات جمال وحنكة، وكن يلاحقنه بكل لهفة وحماس.

فيمدحنه كلما تحدثن إليه، كان قد ألف تماماً حركاتهن تلك والتي لا تكاد تختلف من واحدة لأخرى.

ذلك أن كاريتا ما كادت تتجاوز مرحلة الخجل من تظاهرها بأنها زوجته، حتى أخذت تتصرف معه بشكل طبيعي وكأنه أخوها.

رأى أنهما قد تحدثا في كل موضوع يخطر على بالهما تحت الشمس وذلك بتجرد تام من ناحيتها.

وكان هذا شيئاً جديداً عليه، ولم يستطع إلا أن يتساءل عما جعلها مختلفة عن غيرها بهذا الشكل.

كان يتذكر كيف نظرت إليه بعينين متسعتين، وكأنه من غير البشر عندما أبدى تفهمه لخوفها.

وحدث نفسه بأنها فعلاً غير عادية ومختلفة تماماً عن أية فتاة عرفها.

ولكنه عاد فاعترف لنفسه بأنه لم يقابل سوى عدد قليل جداً من الفتيات.

ذلك أنه كان يتعمد عدم التحدث إلى الفتيات الشابات، لأنه كان يعلم أنه إذا هو تناول العشاء مع احداهن ولو لمرة واحدة، فسيجره هذا إلى شرك الزواج.

وأخرجته كاريتا من مجرى أفكاره، بقولها: «إنه ألذ غداء تناولته قط. ولكنني لم أعد أستطيع تناول المزيد. وأظن أن من الاستهتار الأثيم بالنعم أن أرمي ما بقي منه.»

فقال الإيرل: «إن هذا ما سأفعله بما يقي مني من طعام، وبالكوبين أيضاً.»

فهتفت منزعجة: «هذا إسراف، ربما إذا أنت وضعتها

بشكل مرتب تحت الشجرة، سيجدهما شخص ما ويستفيد منهما.»

فابتسم الإيرل ونهض واقفاً ليفعل ما قالته له.

فنهضت هي أيضاً، وفي هذه اللحظة برز رجلان يمتطيان جوادين من خلال الأشجار.

ألقى الإيرل عليهما نظرة، ثم جمد في مكانه. كان الرجلان ملثمين لا يبدو منهما سوى عينيهما. وكل منهما يحمل في يده مسدساً.

وأدرك الإيرل، ولكن بعد فوات الأوان، أنه كان ينبغي عليه أن يحضر مسدساً لمثل هذه الرحلة الطويلة.

ذلك أنه، في عجلته للهرب، لم يفكر بشيء سوى في أخذ نقوده من الدرج حيث كان خادمه الخاص قد وضعها.

ودفع الخوف من منظر قاطعي الطريق كاريتا إلى الإسراع نحوه لتقف خلفه تحتمي به.

وقال أحد قاطعي الطريق بصوت خشن: «هات كل ما عندك أو أطلق الرصاص على رأسك.»

وقال الثاني: «وسنأخذ الحصانين أيضاً، إنهما أفضل من حصانينا بكثير.»

فقال الأول: «طبعاً، هذا لا يحتاج إلى كلام. هيا أسرع بتسليم ذلك، إننا لا نريد شيئاً غير ذلك.»

فأقبل الرجل الآخر يقف بجانبه بينما أخذ جواداهما يقرضان العشب.

«ولكنني لا امانع في الحصول على تلك الفتاة.»

فقال الأول آمراً: «إحصل على النقود أولاً.»

وهزّ مسدسه تحت أنف الإيرل وهو يقول: «هيا... إنك تعرف ما نريد.»

فوضع الإيرل يده في جيبه.

وتملك كاريتا الخوف من أن يسلبوها زئبق فلا تراه بعد ذلك أبداً.

وأرادت أن تصرخ وتبكي وتتوسل إليهم بألا يفعلوا ذلك.

ولكنها إذ رأت الإيرل يقف جامداً دون أن يتكلم، أدركت أن عليها أن تتمسك بالشجاعة هي أيضاً.

ولكنها تقدمت نحوه بحركة غريزية تحتمي به، عندما سمعت كلام الرجل الآخر وأخرج الإيرل من جيبه كيس نقوده.

وكان ما يزال مليئاً كما كان حين خبأته في الدرج في غرفة نومها.

ذلك أن النقود الوحيدة التي أنفقها كانت تلك التي منحها للسيدة جونسون.

والتمعت عينا قاطع الطريق الأول حين وقعت نظراته على حجم الكيس الذي كان يبدو ثمين المظهر، بينما تقدم الرجل الآخر ليأخذه.

عند ذلك فتح الإيرل الكيس ثم نثر محتوياته على الأرض.

وتألقت الجنيهات الذهبية في أشعة الشمس وهي تدرج كالجدول بين الأعشاب.

وتألقت معها أعين الرجلين وهما ينظران اليها.

عند ذلك، وبسرعة فائقة مد الإيرل يديه ممسكاً كل واحد منهما من رقبته، ومن ثم أخذ يضرب وجه كل منهما بوجه

الآخر بقسوة وعنف مستعملاً في ذلك كل ما لديه من قوة، وأطلق كل من الرجلين صرخة ألم.

وعندما أخذ الدم ينزف من أنف أولهما وقد أصبح شبه أعمى، سدد إليه الإيرل لكمة قوية على ذقنه جعلته ينكفىء إلى الخلف.

عند ذلك رفعه في الهواء، ثم ضرب به الأرض ما جعله يغيب عن الوعي.

أما الرجل الثاني فكان لا يكاد يرى ما يحدث حوله.

وما أن فتح عينيه، حتى تلقى لكمة في معدته من قبضة الإيرل اليسرى تلتها لكمة أخرى على ذقنه ألقته على الأرض.

وسقط مسدساهما من يديهما، فالتقطهما الإيرل وطوح بهما إلى أجمة ملتفة بعيدة قليلاً عن المكان الذي كانا يقفان فيه.

ثم أسرع إلى حصاني قاطعي الطريق، فك لجامهما وضربهما على القفا فأخذا يعدوان منحدرين إلى الوادي.

حدث كل هذا بسرعة لم تكد كاريتا تصدق معها ما كانت تراه عيناها.

وما أن اندفع الجوادان راكضين، حتى انحنت تلتقط قطع النقود.

ولكنه أمسك بيدها يجرها على العشب نحو زئبق وجوبيتر.

وما أن أطلق من فمه صفيراً طويلاً، حتى أقبل جوبيتر راكضاً نحوهما.

وكأنما أدرك زئبق أنه هو أيضاً مطلوب، فجاء خلفه راكضاً.

وما أن ركبت على ظهر حصانها، حتى قالت له: «نقودك... يا دارول، لقد تركتها على الأرض.»

فقال بحدة: «دعك منها، ولنبتعد عن هنا بأسرع ما نستطيع.»

فأطاعته وقد شعرت بالخوف من أن يستعيد الرجلان قواهما ويهددانهما مرة أخرى.

وانطلق الإيرل بحصانه وهي تتبعه.

وعندما قطع مسافة كافية، أوقف جوبيتر.

وعندما وصلت هي بحصانها إلى جانبه، سألته: «كيف أمكنك أن تكون بهذه المهارة... والقوة... والروعة؟ لقد كنت شديدة الخوف من أن يسلباني زئبق.»

وتصور الإيرل أن أية امرأة غيرها كانت ستكون في منتهى الرعب لأجل نفسها.

كان يدرك أنها من البراءة بحيث لم يكن لديها فكرة عما كان يمكن أن يحدث.

ولكن كل ما قاله وهما يستأنفان سيرهما: «ها أنت ذي الآن قد فهمت لماذا لا يمكنك السفر وحدك دون مرافق.»

فقالت: «إن الحق معك... طبعاً الحق معك وإني شاكرة جداً حيث انك كنت موجوداً... فأنقذت زئبق.»

ولم يجب الإيرل.

وبعد فترة من سيرهما، شعرت كاريتا أن الصدمة التي أصابتها لما حدث جعلتها تشعر بما يشبه الإغماء، ولكنها

لم تفصح عن ذلك إذ كانت تدرك تصميم دارول على الوصول إلى مكان آمن بأسرع ما يستطيع، وهكذا انحنت إلى الأمام تربت على رقبة زنْبق.

وبقي الإيرل متابعاً طريقه بسرعة إلى أن لاحت له الغابة القائمة على حدود أملاكه.

هذا يعني أنهما على وشك الوصول إلى نهاية رحلتهما.

ولكنه أخذ يتساءل عما إذا كان ذهابه مباشرة إلى قصره سيجعله في مأمن.

وأخذ يفكر في ذهنه أن إيموجين لابد ذهبت أولاً إلى لندن للبحث عنه.

وعندما لم تجده، جاءت إلى قصره هنا متوقعة أن تجده فيه.

كما كان يتساءل عما إذا كان أيّ من أقاربه اتى لزيارته في القصر الذي كان يرحب بهم على الدوام.

فإذا كان ذلك فهو سيجر على نفسه المتاعب إذا هم رأوه يدخل قصره وإلى جانبه فتاة رائعة الجمال مثل كاريتا وليس بصحبتها مرافقة.

كان يعلم بالضبط ماذا سيظنون به، وإذا كانت الزائرة إمرأة، كيف ستكون معاملتها لكاريتا.

إن كاريتا لن تفهم شيئاً، وذلك لسبب واحد وهو أنه لم يخطر في بالها أنه رجل جذاب يجب ألا تكون معه بمفردها.

فهو يعلم أنها لا تعتبره سوى رجل شهم قد أنقذها من الرعب فيما لو عثر عليها زوج أمها.

وحدث نفسه قائلاً إنه يجب عليه أولاً أن يعرف ما إذا كان قصره خالياً من الزائرين، وبعد ذلك يقرر إلى أين يأخذ كاريتا.

وسارا مخترقين الغابة.

وما لبث الإيرل، والذي كان يعرف كل متر في أراضيه، أن سار نحو الأرض الممتدة أمام باب قصره.

وما أن خرجا من غابة أخرى، حتى رأت كاريتا أشجار سنديان ضخمة كان عدد من الغزلان يرعى تحتها.

كما أن الإيرل رأى كذلك شيئاً يتحرك عن بعد.

وبعد ذلك بثوان، تأكد من أن ذلك الشيء لم يكن سوى عربة سفر تسير في الطريق المؤدي إلى قصره. وكانت عربة يجرها أربعة جياد وقد ركب فارس على كل جانب منها.

ولم يكن به حاجة إلى إلقاء نظرة أخرى.

فقد عرف شكل البزة التي يرتديها الحوذي، فعرف بذلك شخصية صاحب العربة، ومن هو في داخلها.

لقد كانت في الواقع إحدى عرباته والموجودة في الإسطبل خلف منزله في بيركلي سكواير في لندن.

وأدرك جيداً من كان يجلس في داخلها ليس سوى إيموجين.

فهي لم تفعل سوى أن أخبرت خدمه بأنها تريد أن تزوره في قصر برايوري.

وتوترت شفتاه واشتعلت عيناه غضباً فقد تكهن بأن إيموجين ليست وحدها وأنها بصحبة أخويها سيئي السمعة.

فإذا هم لم يجدوه في قصره هذا كما يتوقعون، فسيصرون على البقاء انتظاراً لعودته.

كما أن الخدم الذي سبق ورأوا إيموجين مراراً من قبل، سيطيعون تعليماتها.

ومضت لحظات كان يحدّق فيها أمامه بصمت دون أن يرى شيئاً.

وإذا بكاريتا تقول بصوت خافت منفعل: «هل أنت غاضب؟... هل حدث شيء؟»

فأجاب الإيرل بشيء من الجهد: «كنت فقط اتساءل عن مكان آخذك إليه.»

فقال متوسلة: «آه، أرجوك إذا كنت أسبب لك الضيق... فسأتابع طريقي حالاً، لقد كنت في غاية الروعة... وكريم الأخلاق تجاهي. كنت لطيفاً معي بشكل لا استطيع ان اعبر به... ولكنني لا أريد...أن اكون عبئاً عليك.»

فنظر إليها بحدة وكأنه يريد أن يرى إن كانت صادقة حقاً في ما تقوله.

فهو لم يستطع أن يصدق أن هناك إمرأة تنعدم فيها الأنانية، مثلها.

وانها، بعد كل ما مرّ عليها من أحداث مخيفة تظهر استعدادها لمتابعة السفر وحدها، لكنه، عندما نظر في أعماق عينيها، أدرك انها لم تكن كاذبة.

ابتسم لها وهو يرى جمال وجهها الذي انعكست عليه أشعة الشمس المتسللة من بين أغصان الأشجار.

وقال لها: «كنت أفكر في مكان يمكننا أن نبيت فيه هذه الليلة، نحن الإثنين، وقد وجدت هذا المكان الآن.»

فقالت: «وهل أنت... واثق من أنك تريدني معك؟»

فأجاب: «لا أريدك أن تواجهي أي أخطار أخرى بعد كل ما واجهناه حتى الآن.»

فاعترفت قائلة: «لقد كنت خائفة جداً. لقد كان بإمكانهما أن يأخذا زنبق وجوبيتر. فكر كم سنكون عند ذاك تعيسين لذلك.»

فقال: «عند ذاك لم يكن لي أن ألوم إلا نفسي لعدم احضاري مسدساً معي.»

«ولكنك كنت... رائعاً تماماً عندما ضربت رأسي الرجلين الواحد بالآخر، لم اكد أصدق ما كان يحدث. ولكنني آسفة جداً لأنه كان عليك أن تترك نقودك... على الأرض.»

وسكتت برهة، ثم أضافت تقول: «انك طبعاً لم تنسَ أنني أحضرت معي... مجوهرات أمي وآنا أدين لك بالكثير.»

فقال الايرل: «إنسي ذلك. ان عليك أن تدركي أننا، في هذه الحياة، علينا أن ندفع دوماً ثمن أخطائنا.»

فقالت: «إذن علينا ألا نقترف المزيد منها.»

كان يعلم أنها تظنه غير غني حيث أن لا خادم لديه رغم امتلاكه لحصان فاخر مثل جوبيتر.

ولم يقل شيئاً، وإنما تابع طريقه نحو المنزل الذي استقر رأيه على أن يأخذ كاريتا إليه.

وكان هذا يقع بعيداً عن قصره، وكان يدعى كوخ الحمام قد بني في عهد الملكة اليزابيث.

وكان الإيرل دوماً يراه أحد أجمل البيوت في أملاكه.

كان صغيراً تماماً، وكانت ساكنته الكونتيس الأرملة في

عهد الملكة آن قد شاءت أن يكون لها منزل اكبر واكثر فخامة.

وهكذا بني منزل جديد لسكنى الكونتيسات الأرامل.

وقد كان كوخ الحمام يعاد على مر السنين للأقارب الذين لم يكن بإمكانهم اتخاذ خدم، فكان يسرهم أن يكون لهم منزل صغير.

وكانوا يعتبرونه مكاناً جميلاً جداً يمضون فيه بقية حياتهم.

وقد تذكر الإيرل أن خالته مارثا قد توفيت منذ ستة أشهر. وكانت قد أمضت في هذا الكوخ السنة الأخيرة من حياتها وكان هو قد قدم لها هذا الكوخ عندما كانت قد سألته إلى أين تذهب بعد وفاة زوجها.

ولأنها كانت عجوزاً ضعيفة الجسم، فقد طلب من مربيته، والتي كانت ما تزال تعيش في القصر، أن تسكن مع خالته هذه للعناية بها.

كان قد قال لها: «تعلمين بأنني على استعداد لإعطائك أي كوخ يعجبك في القرية، ولكنك ترفضين التصميم على كوخ معين.»

فأجابته: «إن ما انا بانتظاره، هو أن أحمل إبنك بين ذراعي كما حملتك عندما كنت طفلاً، وأراك تملأ غرفة الأطفال هذه التي رقدت فيها، والتي من المخجل أن تبقى خالية.»

فقال الإيرل بحزم: «أظنك ستنتظرين طويلاً.» وعلى كل حال، فقد رضيت مربيته بأن تعتني بخالته.

وهكذا أدارت المنزل بمساعدة فتاتين من القرية.

ولكنها، بعد وفاة المرأة العجوز، تابعت العيش هناك وحدها.

لقد رأى الإيرل الآن أنه المكان المناسب جداً لكاريتا حيث تبقى فيه إلى أن يقرر ما يفعله مع إيموجين.

وفي هذا المكان يمكنه أن يختبىء هو أيضاً عند الضرورة.

وعندما وصلا إلى المنزل، هتفت كاريتا بإعجاب: «ما أجمله. إنه جميل تماماً، إنه يبدو وكأنه من بيوت الحكايات الخرافية.»

وكان الإيرل يفهم مشاعرها.

فقد كانت شمس العصر تلقي بأشعتها الدافئة على القرميد الأحمر الذي استحال على مر القرون إلى اللون الوردي الباهت، كما كانت تتلألأ في زجاج النوافذ.

لقد كان ذلك المنزل الصغير بمداخنه المرتفعة، تماماً كما سبق وقالت كاريتا عنه إنه غير حقيقي، إنه من بيوت الحكايات الخرافية.

وكان إسمه مستمداً من تلك الحمام التي كانت دوماً ترفرف بأجنحتها بين الحديقة وسطح المنزل.

أوقف الإيرل وكاريتا جواديهما ووقفا ينظران إلى المنزل الذي يحيط به سور خشبي حسن المنظر.

ثم قال: «إذا أنت انتظرت هنا سأدخل إلى المنزل لأرى إن كان ثمة أحد هناك ممن لا تريد أن يرونا، ولن أغيب طويلاً.»

فقالت باسمة: «سأتفرج على الحمام.»

فتبادر إلى ذهن الإيرل أن آية امرأة أخرى في مكانها

كانت حتماً ستقول له ان يسرع بالعودة لأنها تشعر بالشوق الشديد إليه.

وعندما اتجه نحو البوابة، كان يراها واقفة فعلاً تتفرج على الحمام.

إجتاز طريق البيت القصيرة، ثم اتجه شمالاً إلى حيث الإسطبل الملاصق للمنزل.

وكما كان يتوقع، لم يكن في الإسطبل جياد، فوضع جوبيتر في أحد المرابط حيث رأى على الأرض علفاً جديداً.

لقد كان شيء جاهزاً لاستقبال أي حصان قادم.

ثم دخل المنزل من الباب الخلفي حيث اتجه إلى المطبخ بعد إذ تكهن أن المربية لا بد أن تكون فيه، وكانت هي فعلاً، جالسة عند مائدة المطبخ، وأمامها كوب من الشاي.

وعندما سمعت صوت وقع الأقدام، رفعت عينيها، وعندما رأته أطلقت صرخة ذهول: «السيد دارول، لماذا تدخل من الباب الخلفي؟»

فدخل إلى المطبخ وهو يقول: «اني أريد منك العون، فأنا في مشكلة.»

فقالت بحدة: «مرة أخرى؟» وعندما التقت عيناها بعينيه، عادت تقول: «أنا أعرف طبعاً أنني ما كان ينبغي لي أن أخاطب سيادتك بهذه اللهجة.»

فضحك الإيرل، وقال: «يمكنك أن تقولي ما تشائين، ولكنني بحاجة ماسة إلى عونك، والآن قبل أن أقول أي شيء آخر، أرجوك أن تخاطبيني بالسيد دارول وليس سيادتك وتذكري أن إسمي حالياً هو فريمان.»

فحملقت المربية فيه، ثم قالت: «والآن، ما الذي يجري؟ هذا ما أريد أن أعرفه.»

فجلس الإيرل إلى مائدة المطبخ، ثم ابتدأ يقول: «هذا ما سأخبرك به. وتعلمين أنك الشخص الوحيد الذي أخبره بالحقيقة.»

فقالت المربية بهدوء: «هذا ما أرجوه. فقد قلت لك عشرات المرات ان حبل الكذب قصير.»

فضحك الإيرل، ثم قال: «إنني هارب لأنني كنت على وشك الوقوع في شرك لإرغامي على الزواج من اللايدي إيموجين باسيت.»

فقالت بحدة: «تلك المرأة... ما كنت لأدعك تتزوج امرأة مثلها لو كان الأمر بيدي.»

فقال: «وأنا أوافقك على هذا، لقد كنت حقاً في وضع خطر تماماً، ولكنني تمكنت من الهرب، ولكن وقع لي حادث في طريقي إلى هنا.»

فقالت: «لقد كان أول ما لاحظته عند دخولك هو أثر جرح في جبينك، لماذا لا تنتبه إلى نفسك جيداً؟»

كانت المربية تتكلم معه كما كانت تتكلم عندما كان صبياً صغيراً، وقال الإيرل: «كنت محظوظاً إذ لم يكن أسوأ مما كان، وقد عثر علي وأدخلت إلى منزل في مزرعة، وعندما كنت هناك قابلت فتاة كانت هي أيضاً هاربة مثلي.»

فزمت المربية شفتيها. ولكنها لم تقل شيئاً بينما تابع هو يقول: «إن زوج أمها يريد أن يرغمها على الزواج من رجل عجوز يبدو أنه اعتاد ضرب زوجاته وجياده، وهكذا لم يكن من غير الطبيعي أن تصعقها فكرة الزواج منه.»

فقالت المربية: «وهذا هو رأيي.»

فقال: «لقد كانت هي التي عثرت عليّ عندما كنت فاقد الوعي، فاقنعت غلامين مزارعين بأن يحملاني على عربة المزرعة إلى بيتهم، ولكن حدث أن زوجة المزارع ظنت أننا زوجان ولما كانت الفتاة خائفة من البقاء في البرية أثناء الليل وحدها، لم تصحح لها ظنها ذاك.»

ورأى بعض التشكك في ملامح المربية، فأسرع يقول: «إن كاريتا، وهو إسمها، صغيرة السن جداً، وبريئة جداً، ولكنها كانت، في نفس الوقت، بالغة الشجاعة وذلك منذ فترة قصيرة حين اعترضنا قاطعا طريق.»

فهتفت: «قاطعا طريق؟ ما الذي ستعرض نفسك له بعد ذلك؟ أريد أن أعلم.»

فقال: «لقد استطعت التصرف معهما، والآن، أحضرت إليك كاريتا حيث يمكننا، نحن الإثنين، أن نكون آمنين، حالياً على الأقل، إلى أن أقرر ما عليّ أن أقوم به بالنسبة إلى اللايدي إيموجين. فقد رأيتها منذ دقائق تصل إلى القصر.»

فسألته: «بدون دعوة منك؟»

فقال: «بدون دعوة مني بكل تأكيد، وحيث أنني أعلم سبب حضورها، فأنا لا أعرف تماماً ما عليّ أن أقوم به بهذا الشأن.»

فقالت: «حسناً، هناك شيء مؤكد، يا سيد داروِل، وهو أنها ليست المرأة المناسبة لكي تكون زوجتك أو زوجة أي رجل آخر... وهذه هي الحقيقة.»

فسألها بفضول: «ما الذي يجعلك واثقة من ذلك؟»

ولكنه كان يعلم جوابها دون أن تنطق به. فالخدم يثرثرون وهذا يجعل المربية تعرف كل ما يقوم به في لندن، فهناك الخدم الذين يرافقونه عند ذهابه إلى هناك.

وكذلك أولئك الذين في القصر والذين يخدم معهم أخوتهم وأقرباؤهم.

قال لها: «كلامك صحيح تماماً. فأنا اقترفت خطأ كبيراً حين تعرفت عليها. والآن عليك أن تساعديني لكي أخرج من كل ذلك، ولكن لا أريد أحداً، وأنا أعني ما أقول، لا أريد أحداً أن يعلم أنني هنا. كما أنني لا أريد أحداً أن يسأل الآنسة كاريتا عن أمرها خوفاً من أن يكون زوج أمها مقتفياً أثرها.»

فقالت المربية بثقة: «ستكون آمنة معي. ومن حسن الصدف أنني اليوم أخبرت الفتاتين اللتين تعملان هنا، حيث ليس لديهما حالياً عمل كثير، بأن تأخذا إجازة ليومين لرؤية أخيهما القادم حديثاً من البحر.»

فقال الإيرل: «انها فعلاً صدفة حسنة، هذا إذا كنت واثقة من أن بإمكانك القيام بالعمل من دونهم.»

كان يدرك أن كلامه هذا يشكل تحدياً لها، إذ ألقت برأسها إلى الخلف وهي تقول: «إنني لست عاجزة ولا مريضة، فأنا اعرف جيداً ما الذي تحبه لعشائك وهو الذي ستحصل عليه.»

فنهض الإيرل واقفاً وهو يقول: «شكراً جزيلاً ولا تنسي أنني، إذا سألتك الآنسة كاريتا عن إسمي، السيد داروِل، وإياك أن تشيري إليّ بلقب سيادته أو أن تخبريها بأنني الإيرل أوف كالفنديل.»

فقالت، لا لشيء إلا لتكون لها الكلمة الأخيرة: «لم يخطر لي قط أنه سيمر عليّ يوم أراك فيه شاعراً بالخزي من اسمك.»

فضحك الإيرل: «إنني سأضع الحصانين في الاسطبل وأظن أن ألبرت سيأتي لرؤيتك، فاخبريه أن يعتني بهما ويغلق فمه.»

وكان ألبرت أحد الرجال الذين يعملون في الحديقة.

كذلك كان الايرل يعلم أنه يلاطف مربيته منذ اكثر من عشر سنوات.

وكان رجلاً قليل الكلام كما أنه بالغ الرقة مع الجياد وكذلك الأزهار.

ولم يكن هناك رجل أفضل منه في المنطقة وترك الإيرل المربية وتزل مجتازاً الحديقة.

وكانت كاريتا ما تزال تتفرج على الحمام، وعندما رأته تألقت عيناها.

فقال: «كل شيء على ما يرام.»

فسارت نحو البوابة بينما الإيرل أمامها إلى حيث جوبيتر في الإسطبل، وعندما أخذ يرفع سرجي الجوادين، أخذت هي تساعده كما أنها وضعت لهما العلف في المذود.

ثم أحضر لهما الإيرل ماء، وبعد ذلك أغلق الباب عليهما، وسألته: «لمن هذا المنزل الصغير الجميل؟»

فأجاب: «إنه لي أنا، وستجدين مربيتي في داخله وقد احتضنتني مذ كنت طفلاً.»

«أظن كان عليّ أن أدرك هذا.»

فسألها: «لماذا؟»

أجابت: «لأن كل شيء فيك هو خيالي غير عادي فأنا لا أصدق أنك مثل بقية البشر.»

فضحك الإيرل بينما تابعت هي تقول: «ليس بشراً عادياً ذلك الذي يهزم اثنين من قطاع الطرق في نفس الوقت. وليس رجلاً عادياً من يمتلك مثل هذا البيت المميز بجماله.»

قالت وهو يدخل بها من الباب الأمامي: «لا أظنك تعتبر أن كل ما ألمسه يختفي كما يحدث في القصص الخرافية.»

فقال: «أرجو أن لا يكون ذلك، لأنني تعب وجائع، وأنا واثق من أنك أنت أيضاً كذلك.»

فقالت: «ليس كثيراً.»

وما أن أنهت كلامها، حتى فتح الباب ووقفت المربية عنده.

فقالت لكاريتا: «أدخلي يا آنسة. لقد حدثني السيد دارول بكل شيء عنك، وأنا أعدك بأنك ستكونين في أمان تام هنا.»

فقالت كاريتا وهي تمد لها يدها: «أشكرك. لقد كنت أقول لتوي أن هذا مكان رائع حيث لا يستطيع أحد أن... يضرنا.»

فقالت المربية بحزم: «هذا لن يكون مادمت أنا هنا. أظنك ترغبين في فنجان شاي، ولكنني سأريك غرفتك أولاً، فأنا أراك تحملين سرج الحصان بيدك.»

وأخذته المربية من يدها، ثم صعدتا معاً السلم. كان كوخ الحمام هذا يحتوي على غرفتي نوم واسعتين وغرفتين أصغر حجماً.

وبتصرف تلقائي، خصصت المربية أفضل الغرف هذه للإيرل.

أما الغرفة التي بجانبها فقد كانت جميلة جداً وتطل على حديقة زهور.

كانت فيها نافذة مقوسة كانت أشعة الشمس تنساب منها من خلال زجاجها راسمة ألواناً ذهبية على السجادة الوردية.

فقالت كاريتا: «إنني أحلم، أنا أعلم أنني أحلم، ليس ثمة غرفة بهذا الجمال.»

فقالت المربية: «والآن، أغسلي يديك بينما أنزل أنا وأحضر إليك الشاي.»

وما أن ابتعدت، حتى رأت كاريتا نفسها وقد علاها العرق والغبار، فصممت على ارتداء ثوبها الموسلين الخفيف.

وهكذا علقت ثوب الركوب الذي يحتوي في بطانته على مجوهرات أمها.

فكرت وهي ترتجف في أن قاطعي الطريق لو كانا تكهنا بما كان لديها، لكانا فتشاها حتماً.

ولكنها عادت فذكرت نفسها بأن ذلك شيء لم يحدث على كل حال.

لقد كان دارول رائعاً في إنقاذها وإنقاذ نفسه، وهاهما الآن في مأمن في هذا المنزل الجميل.

وهكذا لم يعد هناك سبب لشعورها بأي خوف، عند ذلك تذكرت أن زوج أمها ما زال يبحث عنها.

وحدثت نفسها بصوت عالٍ، إنه لن يجدني بتاتاً في هذا المكان. وكيف يمكنه ذلك؟

وكأنما كانت الحمام تجيبها، أخذت تهدل برقة من خارج النافذة.

وشعرت برغبة مفاجئة في أن تجلس مع دارول وتتحدث معه.

وفي الواقع، كانت تريد أن تتأكد من أنه موجود وأنه لم يختف كما كانت تخاف.

وعندما ارتدت احد أثوابها الموسلين، ركضت تهبط السلم تفتش عنه.

وكان، كما توقعت، في غرفة مفتوحة على الردهة.

وكانت الغرفة، بنوافذها في الجانبين، أجمل غرفة رأتها.

ولكن عينيها، على كل حال، تسمرتا على الإيرل الذي كان واقفاً ينظر إلى الحديقة.

ولشدة سرورها برؤيته، اندفعت نحوه.

وعندما وصلت إليه، قالت بصوت منخفض يملؤه الإنفعال: «هل أنت... هنا... أحقاً هنا؟ آه... أشكرك... أشكرك لرقتك ولطفك... نحوي.»

الفصل السادس

أعدت المربية وجبة شاي ممتازة رغم أنها لم تكن تتوقع حضورهما.

فقد صنعت بسرعة نوعاً من الفطائر كان الإيرل يحبه عندما كان صبياً صغيراً، وكان هناك خبز محمص ساخن وكثير من الزبدة والعسل.

كذلك كان يوجد أيضاً بقية من كيك الفاكهة كانت المربية قد صنعتها من قبل.

قال الإيرل انه دوماً كان يحب هذا الكيك.

وشعرت كاريتا بمتعة بالغة وهي تتناول معه الشاي وقد بدا مرحاً مرتاح البال.

فقالت له: «إنني أعرف سبب سرورك، ذلك لأنك عدت إلى بيتك.»

فنظر الإيرل حوله في أنحاء هذه الغرفة الصغيرة، وسألها: «هل ستكونين سعيدة في مثل هذا المكان الضيق؟»

فأجابت: «أظن بإمكان أي انسان أن يكون سعيداً هنا، ولكن أمي اعتادت أن تقول: ليس القرميد والحجر هو الذي يصنع البيت، بل الحب الذي في داخله.»

وكان هذا هو الذي طالما تمناه الإيرل، ولم يقل هذا، بل نهض واقفاً وهو يقول: «إنني سأتركك الآن، ولكنني أعلم انك ستكونين آمنة مع المربية، وسأعود

بأسرع ما استطيع، فلا تقلقي إذا أنا تأخرت ساعة أو نحوها.»

فبدا القلق على كاريتا، وسألته: «ألن... ألن تقع في أي... خطر؟»

فأجاب: «أرجو أن لا يكون ذلك، وعندما أعود سيكون لدي اشياء كثيرة لأخبرك عنها.»

ونظر إليها معجباً بجمالها، كان وجهها مرفوعاً إليه وقد ملأ عينيها القلق.

وكاد ألا يصدق أنها لم تكن قلقة لأجل نفسها بل لأجله.

وابتسم لها، ثم دخل المطبخ يقول للمربية: «اشكرك لهذا الشاي الرائع، إنني ذاهب الآن إلى القصر، وقد أتأخر لبعض الوقت.»

فنظرت المرأة إليه بدهشة: «اظنك قلت انك تتجنب اللقاء بالليدي إيموجين؟»

فأجاب: «إنني لن أراها. إنني أريد فقط أن أعلم ماذا يحدث هناك.»

فقالت: «إذا كنت مختبئاً، كما قلت، فكن على حذر، فهناك كما تعلم، في كل مكان عيون تترقبك.»

فضحك الإيرل وقال: «سأكون حذراً.» وخرج من الباب الخلفي، ثم تردد قليلاً وهو يفكر ما إذا كان عليه أن يركب جوبيتر، ولكنه ما لبث أن حدث نفسه بان ذلك سوف يجلب إليه الإنتباه.

وبدلاً من ذلك، قرر أن يذهب سيراً على قدميه ثم اتخذ إلى القصر طريقاً غير مباشر.

ذهب أولاً من خلال الغابة، ثم الأجمة، متجنباً الحديقة.

وأخيراً، برز عند مؤخرة المنزل، حيث انتقل بحذر إلى النافذة التي كان يقصدها.

كان واثقاً تقريباً من أنه في هذا الوقت من النهار، سيجد سكرتيره، ميجور وورد، جالساً إلى مكتبه.

وكان سكرتيره لا يدير فقط أمور القصر والأملاك الأخرى، ولكن بقية المنازل كذلك. وكان في الجيش ضابطاً برتبة ميجور في ما كان والد الايرل يسميها دوماً فرقة العائلة.

وكان قد جرح في قدمه عند خدمته في أفريقيا ما جعله يسرح من الجيش وهذا ما سبب له التعاسة. وكان أن قبل مسروراً وظيفة سكرتير الإيرل اوف كالفنديل.

وكان أن أثبت جدارة فائقة منذ قدومه إلى قصر برايوري هذا.

كانت النافذة مفتوحة عندما نظر الإيرل بحذر فرأى الميجور جالساً إلى مكتبه وأمامه كومة من الأوراق.

وشعر بالإرتياح وهو يراه بمفرده. وبصوت منخفض، قال: «وورد، إني هنا.» فأجفل الميجور، ورفع بصره ذاهلاً.

وفي البداية، لم يلحظ أن الإيرل كان في الخارج، ولكنه مالبث أن هتف وهو يراه يتسلق النافذة داخلاً: «لم تكن لدي فكرة بأن سيادتك قد وصلت من السفر.»

فقال الإيرل بحدة: «أقفل الباب.»

فأسرع الميجور نحو الباب ليقفله، وبعد ذلك قال الإيرل: «والآن، أخبرني بالضبط عما يحدث هنا، إنني أعلم أن اللايدي إيموجين هنا، لقد رأيتها تصل بعربتي.»

فبدا القلق على وجه الميجور.

«ألم تكن سيادتك تتوقع حضورا ضيفة عليك؟»

فقال الإيرل باختصار: «إنني لم أدعها للقدوم، وأنا لا أريد ان أراها بعد الآن أبداً.»

فازداد القلق في ملامح الميجور، واخذ يقول: «لقد قالت سيادتها...»

فقاطعه الدوق: «هذا ما أريد أن اعرفه، أخبرني بالضبط بما حدث.»

وكان أثناء كلامه، قد جلس على الكرسي المريح الوحيد في الغرفة، بينما قال الميجور وهو يقف أمامه: «لقد اخبروني منذ حوالي ساعة ونصف بأن اللايدي إيموجين باسيت قد جاءت من لندن مع شقيقيها الاثنين.»

فتحققت ظنون الإيرل، ولكنه لم يقل شيئاً بينما تابع الميجور يقول: «لقد سألت عما إذا كنت في القصر، وعندما قيل لها انك لست هنا، كما أن قدومك غير متوقع، قالت إنها ستنتظر قدومك مهما طال أمد ذلك.»

وتحققت ظنون الإيرل مرة أخرى، وتابع الميجور قائلاً: «لقد طلبت افضل غرف الضيوف لنفسها ولشقيقيها،

وعندما ذهبت لملاقاتها، اخبرتني بأن علي ان أرسل بطلب رجل الدين حالاً.»

فهتفت الإيرل: «ماذا؟»

فقال الميجور: «لقد قمت بهذا العمل دون سؤال، مفترضاً أنه أمر قد اتفقتما عليه أنتما الاثنان.»

فسأله: «هل قابلت رجل الدين؟»

فأجاب الميجور: «إن السيد اندرسون معها الآن، و...»

وسكت لحظة، بينما كان الإيرل ينتظر أن ينهي حديثه، ثم تابع يقول: «لقد أمرت سيادتها عمال الحديقة بأن يزينوا القصر بالورود.»

وبقي الإيرل صامتاً، بينما تابع الميجور: «ليس أمامي سوى الإعتذار من سيادتك إذا كان هذا ضد مشيئتك، ولكن سيادتها كانت تتحدث بلهجة واثقة لا تدع مجالاً للشك، ما جعلني طبعاً أظن انها تنفذ تعليماتك في غيابك.»

ومازال الإيرل صامتاً. وبقي الميجور واقفاً وقد تعلقت ملامحه بالقلق الشديد.

لقد كان في الواقع، وفياً للإيرل كما كان وفياً لابيه من قبل، وكان يشعر بالقلق عليه وكانه ابنه هو، فقد راقبه وهو ينمو وأدرك أي رجل رائع هو دارول.

فقد بقي عطوفاً متفهماً لكل العاملين في خدمته رغم ثرائه الطائل ومكانته الهامة في المجتمع. ولم يعرف الميجور وورد عملاً قام به الإيرل ينطوي على بخل.

ودوماً كان يرى معاملته للنساء منذ تركه الجامعة،

جديرة برجل مهذب. فهو يتساءل الآن عما تراه حدث فجأة، ولماذا يعود الإيرل إلى منزله متسلقاً نافذة لكي يدخل.

كما تساءل عما كانت اللايدي إيموجين تهدف إليه. ذلك أنها لم تعجبه قط كما أنه كان يعلم أن الخدم جميعهم يكرهونها.

ولا شك أن الإيرل كان سيذهل لو أنه علم أن الميجور كان يتمنى دوماً ألا يتم زواج الإيرل من اللايدي إيموجين.

وبعد صمت طويل، قال الإيرل: «أريد أن اتحدث إلى رجل الدين. هل بإمكانك أن تتدبر أمر إحضاره إلى هنا دون أن تعلم اللايدي إيموجين بذلك؟»

فأجاب الميجور: «بإمكاني ذلك طبعاً. سأطلب من الخدم بأن يخبروه عندما يخرج من غرفة الجلوس حيث هو الآن معها، يخبره بأنني أريد أن اتحدث إليه في شؤون تخصني.»

فأومأ الإيرل برأسه، بينما سار الميجور نحو الباب مغادراً الغرفة. وبعد خروجه، عاد الإيرل فاقفل الباب، ثم اخذ يتمشى في الغرفة إلى أن وقف امام خرائط املاكه المعلقة على الجدران.

كان يفكر كم هو محظوظ إذ يملك أي شيء يمثل جزءاً من تاريخ أسرته. ولكما انتقلت الأرض من وارث لآخر، اضاف إليها هذا عدة افدنة.

وهي الآن، دون شك، أوسع أراضي المنطقة. وكان مفروضاً أن يورثها، يوماً ما، ابنه، ولكنه يعلم

الآن أنه لن يكون له إبن من امرأة مثل اللايدي إيموجين مهما كانت الظروف. حتى وهو يفكر فيها، كان يسمع صوت كاريتا الرقيق الخافت وهو يحدثه عن الحب. فهو يعلم أن فكرتها عن الحب هي سامية مثالية. ولكنه يعلم أن مشاعر إيموجين نحوه هي شيء مختلف عن هذا تماماً.

ووجد نفسه يرجو أن لا تصطدم أبداً في حياتها مع امرأة مثل إيموجين، أو أن تعرف الطرق التي يسلكنها.

وسمع قرعاً خفيفاً على الباب، وإذ افترض أن الميجور وورد كان يدرك أنه اقفل الباب بعده، فقد فتحه. وإذا به يرى رجل الدين واقفاً ينظر إليه وقد تملكته الدهشة.

وهتف قائلاً: «سيدي؟ لم تكن لدي فكرة عن وجودك في المنزل.»

فقال الإيرل: «ادخل أيها السيد المحترم.»

فدخل بينما اقفل الميجور الباب خلفه. وأدرك الإيرل ان الميجور بقي في الخارج يحرس الممر من أي قادم، وذلك دون انتظار أمرٍ منه بذلك.

وتقدم رجل الدين والذي كان رجلاً عجوزاً إلى الأمام وهو يقول: «لا استطيع ان افهم، يا سيدي، لقد اخبرتني اللايدي إيموجين، والتي كنت اتحدث معها منذ فترة بسيطة، بانك لم تصل بعد. إني اعرف، في الواقع ان ليس لديها فكرة عن وجودك في المنزل.»

فقال الإيرل: «لا احد يعلم ذلك عدا الميجور وورد.

والآن، إجلس واخبرني بالضبط ما الذي قالته إيموجين لك.»

فنظر إليه وقد تجلت الحيرة في وجهه، وعندما أدرك انه ينتظر جوابه، قال: «لقد اخبرتني انكما ستعقدان زواجكما لحظة وصولك، حتى ولو كان ذلك في وقت متأخر من الليل.»

ورأى التعبير الذي بدا على وجه الإيرل، فحبس انفاسه قبل أن يتابع بشجاعة: «قالت لي ان أبقى على أتم استعداد لكي احضر في اللحظة التي ترسلان فيها في طلبي، لقد رأيت ذلك غريباً جداً، يا سيدي، ولكنني فهمت انها تتبع تعليماتك حرفياً.»

فقال الإيرل: «إن هذا ما توقعته. والآن سأخبرك بما أريد.»

* * *

عندما ترك الإيرل كوخ الحمام، ساعدت كاريتا المربية برفع أكواب الشاي، وأرادت ان تساعدها في غسلها، ولكن المربية قالت: «إصعدي الآن وارتاحي قليلاً أثناء غياب السيد دارول. انه سيغيب بعض الوقت. فإذا امكنك الاستلقاء على سريرك فقد تغفو عيناك.»

فسالتها كاريتا: «هل انت واثقة من أن بإمكانك القيام بالعمل وحدك؟»

فضحكت المربية، وأجابت: «إنني أقوم بكل شيء وحدي منذ سنوات لا أدري عددها، أما الآن فقد صار عملي اقل

حيث ان مر السنين ترك آثاره على يدي.» ووضعت الأكواب وصحونها في وعاء كبير وهي تتابع قائلة: «وكما اقول دوماً للسيد دارول، ليس لدي رغبة في التقاعد، إن كل ما انتظر هو ان اعتني بابنه... وكلما اسرع في إنجابه، كان ذلك افضل.»

وساد صمت قصير قالت كاريتا بعده: «لا بد انه كان طفلاً جميلاً جداً.»

فأجابت المربية: «هذا صحيح، كان كل شخص يحمله ويدلله ويناغيه، ولم يكن عليه إلا أن يبتسم لهم، لكي يعطونه كل ما يريد.»

«إني واثقة من انك كنت تحبينه كثيراً.»

فأجابت بحزم: «كنت أريده أن يكون سعيداً، وهذا ما أريده الآن، ولكنه لن يجد السعادة مع أولئك النسوة اللاتي يلاحقنه وكأنه طريدة.» وفجأة، شعرت كاريتا بالإكتئاب يمتلكها. وشعرت بشيء كالسكين يخترق فؤادها، من الطبيعي ان تلاحق النساء دارول، ولم لا وهو بهذه الوسامة والجاذبية، والرقة في نفس الوقت؟

وقالت: «أظن من الأفضل ان اصعد واستلقي على سريري.»

فقالت المربية: «هناك أريكة مريحة في غرفة الجلوس، وإلا فاذهبي إلى غرفة نومك إذا كنت تفضلين ذلك.»

فأجابت كاريتا: «بل سأذهب إلى غرفة الجلوس، فأنا أريد ان اكون موجودة عندما يعود.»

قالت ذلك ثم تركت المطبخ، ونظرت المربية

في أثرها وفي عينيها معنى لو رآه الإيرل لاصابته الدهشة.

كانت تحدث نفسها وهي تتنهد بأنه رجل الآن وعليه أن يقرر أموره بنفسه. فإن ما تقوله هي لن يغير من الأمر شيئاً، وتمنت لو عاد صبياً مرة أخرى، فتهزه هزاً وتخبره بأنها هي التي تعلم ما يناسبه.

* * *

دخلت كاريتا غرفة الجلوس، وأخذت تتأمل جمالها مرة أخرى، وكانت هناك أريكة عميقة بجانب المدفأة، وحيث انها كانت متعبة، فقد وضعت وسادة تحت رأسها، ثم رفعت قدميها، وشعرت براحة كاملة.

ومن خلال النافذة، كان يصل إلى مسامعها هديل الحمام وهي تأوي إلى مجاثمها.

وفكرت في أن دارول وحده هو من بإمكانه ان يكون لديه منزل بهذا الجمال.

ومرة أخرى، شعرت بذلك الألم يعود إلى صدرها.

وعندما تمنت لو يبقى معها ولا يغادر، ادركت بأنها تحبه، إنها تحبه، ولكن عليها أن تتركه ولا تراه بعد ذلك أبداً، وفكرت يائسة قبل ان تستسلم للنوم: «لن أحب... بعده... رجلاً آخر... أبداً.»

* * *

عاد الإيرل من نفس الطريق التي سلكها في قدومه وهو يحدث نفسه بأنه رتب الأمور على أحسن ما يمكن. فقد وافق

رجل الدين على كل ما طلبه منه، وقبل ان يغادر الإيرل مكتب الميجور وورد، اعطاه عدداً من التعليمات.

وقال هذا بإخلاص: «لا يمكنني ان اقول، يا سيدي، انني مسرور لما تطلب مني عمله.»

فقال الإيرل: «ومع هذا، فانا واثق من انك لن تخذلني. فلطالما ساعدتني في الماضي على الخروج من مآزقي.»

وتذكر وهو يقول ذلك كيف كان ميجور وورد يساعده على الخروج من مآزقه عندما كان صبياً، كما كان لديه علاقة عندما كان فتى حدثاً ولم يكن يريد أن يعلم أبوه بذلك، لقد كان الميجور يقدم إليه دوماً النصائح الجيدة وكان دوماً يمثل بالنسبة إليه حبل النجاة بالنسبة للغريق.

وقال الميجور: «سأبذل جهدي، يا سيدي، ولكن لا بد انك اصبحت تعلم الآن، ان اللايدي إيموجين هي امرأة خطرة بالغة العناد.»

فلم يجب الإيرل، بل خرج من الغرفة بواسطة النافذة التي أقبل منها.

وما ان اختفى خلف الأجمة، حتى تنهد الميجور، ثم اطلق ضحكة قصيرة حادة، فكر في أن الإيرل وحده الذي بإمكانه ان يقع في المتاعب بكل سهولة، ثم يتمكن من تخليص نفسه منها بالسهولة ذاتها.

* * *

شعر الإيرل وهو يعود عن طريق الغابة، ان

جمالها قد محا من نفسه كل خوف، وكذلك الغضب الذي شعر به يشتعل في كيانه منذ ترك منزل إيموجين هارباً، فهو الآن في بيته، وقدماه على تراب أرضه، وكانت آخر خيوط أشعة الشمس تتألق من خلال أوراق أشجاره هو.

وحدث نفسه بقوله، لشد ما أنا محظوظ. ان حظي لهو غريب بشكل لا يصدق.

وسمع وهو في طريقه الغربان تأوي إلى اعشاشها، كما أن بعض الغزلان كانت نائمة الآن عند جذع الأشجار، وعندما وصل إلى كوخ الحمام، كان أول ما رآه، الحمائم البيضاء ترفرف مضطربة فوق السطح، وتساءل عما عسى أن يكون أثارها، وعندما نظر من فوق السياج الخشبي، رأى عربة لم يرها قط من قبل.

كما أنه لم يعرف بزة الخدم، ولأي أسرة ترمز. فدخل من بوابة الحديقة ثم أسرع إلى الباب الأمامي. وكان مفتوحاً، وما أن دخل الردهة حتى سمع كاريتا تصرخ.

* * *

كانت كاريتا قد رقدت حوالي الساعتين، ولم يكن لديها فكرة عن ان المربية، دخلت الغرفة متلصصة ثم خرجت منها بهدوء، ذلك أنها نزلت إلى الحديقة لتحضر بعض الخضر لتحضير العشاء.

واخذت تنظر حولها لترى ان كان هناك شيء آخر يحبه دارول،

ولهذا لم تسمع صوت العربة وهي تتوقف قرب الباب الأمامي، ولا صوت مقرعة الباب، ولكن ذلك ايقظ كاريتا على كل حال. لقد تساءلت، وهي تفتح عينيها، أين تكون، لقد كانت تحلم بدارول، ولكنها عندما نظرت حولها في الغرفة، لم يكن هناك.

شعرت بأنه قد أطال الغيبة، راجية ألا يكون قد حدث له شيء.

وجلست على الأريكة، وظنت أنها تسمع الباب يفتح في الردهة، فنهضت واقفة بلهفة، ها هو ذا قد عاد، ولم يعد ثمة حاجة بها للشعور بالقلق، ولكن عندما فتح باب غرفة الجلوس، اطلقت صرخة ذعر خافتة. ذلك ان الواقف هناك لم يكن دارول، بل زوج أمها.

وبقيت لحظة تحدق فيه لا تستطيع النطق، ثم ما لبث الخوف الصاعق أن شل كيانها عندما هتف هو بعجب ثم تقدم نحوها.

رأته ينظر إلى تلك الغرفة الصغيرة وقد بدا منظره مخيفاً.

وبدا لها اكثر سوءاً وعداءً مما رأته عليه قط.

قال بصوت خشن: «ها أنت ذي يا كاريتا. أنت التي جعلتني اتعقبك من مكان إلى آخر.» واستمر بالاقتراب منها قبل أن يتابع: «كيف تجرؤين على الهرب بتلك الطريقة الحقيرة؟ لقد سببت لي الكثير من المتاعب والنفقات.»

فسألته: «كيف عثرت عليّ... يازوج أمي؟» لقد شعرت كأن العالم انهار حولها وسقط السقف على رأسها، وكان جسدها بأجمعه يرتجف.

«بإمكانك ان تلقي هذا السؤال، وأن تظني أن بإمكانك أن تختفي مني منسلة كالأفعى، ولكن ليس بإمكانك أن تخفي زنبق.»

وسكت مزمجراً ثم تابع: «كلا يا فتاتي، لم تكوني من المهارة بحيث تخفينه، فما أن علمت بما قاله احد معارفي عما رآه في احد المزارع، حتى تكبدت عناء الذهاب إلى هناك بنفسي.»

فاطلقت كاريتا صرخة صغيرة، فقد تذكرت أنها كانت حسب رأي دارول، قد تركت جوبيتر وزنبق طليقين في المرعى مما عرضهما للأنظار.

كيف كانت من الغباء بحيث لم تدرك أن مثل هذين الحصانين الفاخرين سيكونان محط انظار المارة؟

وخصوصاً ذلك الذي كان يبحث عنها؟

وتابع السير مورتيمر قائلاً: «لقد تكبدت الكثير من المتاعب في البحث عنك، فماذا سمعت؟ كان كلاماً فارغاً عن كونك امرأة متزوجة ومعك رجل. أي رجل هذا، وأين وجدته؟ هذا ما أريد أن أعرفه. وافهمي جيداً أنني سأتصرف معه كما سأتصرف معك.»

فاطلقت كاريتا صرخة قصيرة، وقالت: «لم يكن الذنب ذنبه... فقد حدث له حادث أصبح معه غائباً عن الوعي. فظنت زوجة المزارع أننا رجل وزوجته... وبهذا تمكنت من المبيت تلك الليلة... في المزرعة.»

«وظننت نفسك من المهارة بحيث تهربين مني ومن اللورد ستلبري.»

«لقد اخبرتك، يا زوج أمي... أنني لا أريد... أن اتزوجه.»

فضحك السير مورتيمر، وكانت ضحكة بالغة البشاعة: «إذن، فمازلت تتحدين إرادتي؟ أليس كذلك؟ حسناً، لن يطول بي الوقت حتى أردك إلى عقلك. ولا تقولي إنني لم انذرك.»

وسكت قليلاً، قبل أن يعود فيقول بقسوة: «انك ستعودين معي الآن، يا فتاتي، وبعد المتاعب التي سببتها لي، سترين إلى أي حد سيكون عقابك مؤلماً.»

فأخذت كاريتا ترتجف، ولكنها قامت بآخر محاولة تتحداه فيها: «مهما قلت، ومهما فعلت... فلن أتزوج... لورد ستليري.»

فقال: «سوف نرى، ولكنني سأريك الآن نموذجاً عما ينتظرك عندي.»

ورأته، أثناء كلامه، يحمل في يده سوطاً يستعمله لجياده وكلابه في العادة، وحاولت أن تهرب، ولكنه أمسكها بذراعها، ثم رفع يده بالسوط إلى ما فوق رأسه، ثم هوى به على ظهرها.

وتمزق ثوبها الموسلين الخفيف في الوقت الذي صرخت فيه عالياً.

فهدر قائلاً: «هل اعجبك هذا؟ انني سأذيقك من هذا عشرة يومياً إلى أن تقبلي بالزواج من الرجل الذي اخترته لك.»

ورفع يده بالسوط ثانياً، فتلوت كاريتا تريد أن تخلص نفسها منه، وعل كل حال، قبل أن تهوي يده بالسوط

عليها للمرة الثانية، كان الباب يندفع مفتوحاً، ثم يدخل الإيرل. وما ان رأى ما يحدث، حتى صرخ به قائلاً: «ما الذي تفعله هنا ايها الحيوان.» ولما لم يتوقع السير مورتيمر مثل هذا الصوت الصاعق الذي يهدد بالسلطة، فقد خفض يده. وإذ تراخت قبضة يده الأخرى، نجحت كاريتا في تخليص نفسها منه، لتندفع من ثم نحو الإيرل وهي تصرخ باكية: «انقذني... آه، انقذني... انه زوج أمي وقد عثر علي... وهو سيأخذني معه.» واختبأت خلف الايرل بينما كان هذا ينظر إلى الرجل المسن بشكل جعل هذا يشعر بعدم الإرتياح.

وفي محاولة لتبرير فعلته، قال: «إنني لا اعرف من أنت، ولكنهم اخبروني انك كنت تدعي انك زوج ابنة زوجتي. ان بإمكاني أن أرفع عليك دعوى بخطف فتاة قاصر.»

فقالت كاريتا بذعر: «لقد.. اخبرته... بأن ذلك... لم يكن ذنبك... وانك كنت... غائباً عن الوعي... لا تدعه يلحق بك... ضرراً... ولكنه يقول إنه... سيعيدني معه ليزوجني... من لورد ستليري.»

كانت كلماتها متفككة متناثرة، بينما الدموع كانت تنهمر على وجنتيها، كما كان مكان وقع السوط على ظهرها يؤلمها بشدة.

فنظر الإيرل اليها قبل أن يقول: «إصعدي إلى غرفتك يا كاريتا، وأنا سأحسم هذا الأمر.»

كان يتكلم بهدوء ولكن بطريقة جعلتها تفهم أن عليها أن تطيع.

ودون جواب منها، هرعت نحو الباب، ففتحته ليتصاعد بعد ذلك صدى وقع أقدامها تعبر الردهة، وقال السير مورتيمر هازئاً: «انك لست بحاجة إلى إضاعة وقتك في تسكين روعها. انك تعلم كما أعلم أنا، ان القانون في جانبي، وأنا ساعيدها معي حالاً، وإذا كان هناك ضرورة، فإن خدمي سيساعدونني.»

وكان الإيرل يعلم أنهم ثلاثة رجال، وهو لن يكون باستطاعته ان يحمي نفسه إزاء هذا العدد غير المتكافىء.

مشى نحو المدفأة، ثم وقف أمامها، وأثناء ذلك، كان يشعر بأن السير مورتيمر كان يحس بشيء من الإرتباك إزاء هدوئه وضبطه لنفسه.

ويظهر أنه توقع أن ينكمش السيد فريمان أمامه أو على الأقل يظهر التذلل.

قال: «والآن، اسمع أيها الشاب. أظن أن ابنة زوجتي قد اخبرتك بأنني تبرت أمر تزويجها، وأي امرأة تريد اكثر من زوج غني وذي لقب.»

فأجاب الإيرل: «إنني مسرور لقولك هذا، حيث ان هذا بالضبط ما تملكه كاريتا.»

فحدق السير مورتيمر فيه: «لا أفهم ما تقول.»

«انني اخبرك بأنني قد تزوجت ابنة زوجتك وأؤكد لك انها زوجتي.»

فغمغم السير مورتيمر مضطرباً: «لا اصدق ذلك، من المستحيل ان تكون فعلت ذلك.»

«بالعكس، فقد تزوجنا حالما تركنا المزرعة.» فصرخ

السير مورتيمر: «انه غير قانوني. غير قانوني لأنني بصفتي الوصي عليها، لم اعطها موافقتي، اقسم بأن اجعلهم يلقونك في السجن حيث لن يمكنك جلب مزيد من المتاعب لي أو لكاريتا، انها ستنال عقابها لهذا... نعم، انها ستنال عقابها لما سببته لي من عناء في ملاحقتها.» وبان الشر في وجه السير مورتيمر ماجعل الإيرل يتمنى لو يضربه.

ولكنه، بدلاً من ذلك، قال بنفس الصوت الهادىء المسيطر: «في الواقع، لا شيء هناك يمكنك عمله ماعدا رفع قضيتك، كما اظن، إلى مجلس اللوردات. وهذا سيكلفك الكثير من الوقت، والمال كذلك.»

وكان السير مورتيمر قد فتح فمه يشتمه، ولكنه توقف عن ذلك في منتصف كلامه، ليسأله: «مجلس اللوردات؟»

«انك لم تحمل نفسك عناء السؤال عن اسمي، ولهذا، ربما لم تعلم بأنني الإيرل أوف كالفنديل.»

وللحظة، جمد السير مورتيمر في مكانه، ثم أخذ يغمغم مضطرباً: «انا... انا لا اصدق هذا، انك تكذب... انك... تكذب طبعاً.»

فقال الإيرل بضجر: «إنني اخبرك بالحقيقة، وإذا كنت تريد تأكيداً لذلك، فمن السهل عليك الحصول عليه من أي شخص في القرية، والتي هي قريتي في الواقع.»

فقال السير مورتيمر بصوت مبحوح: «الإيرل أوف كالفنديل؟ اظنني سبق ورأيتك في سباق الخيل.»

فقال الإيرل: «هذا ممكن جداً، فإنني املك عدداً من

ميادين السباق، وإذا كنت من المهتمين بسباق الخيل، فلا بد انك تتذكر انني فزت بالكأس الذهبية في اسكوت العام الماضي.»

فذهل السير مورتيمر، واخذ يطيل التحديق في وجه الإيرل وكأنه يشك في أنه يخدعه، ولكنه في نفس الوقت لم يستطع ان يتصور كيف. وقال بحقد: «اظنني عرفتك. ولكن لماذا تزوجت ابنة زوجتي؟»

فابتسم الإيرل: «لا اظنك ستقتنع بالسبب حتى ولو اخبرتك به. والآن، بما اننا في شهر العسل، أرجو أن تكون من اللباقة بحيث تدعنا بسلام. اظنك قد سبق واخفت زوجتي في الماضي، ولكن لن يمكنك ذلك في المستقبل بعد الآن.»

فقال السير مورتيمر بلهجة مختلفة: «حسناً. إذا كنت حقاً قد تزوجت كاريتا، طبعاً أنا...»

فقاطعه الإيرل: «كما سبق وقلت لك، اننا الآن في شهر العسل، وحتى أقل المتطفلين حساسية يعرف بأن عليه أن يتركنا وحدنا.»

وأخذ الإيرل ينظر إلى السير مورتيمر بازدراء قبل ان يضيف قائلاً: «مع السلامة، ليس لدي ما اقوله اكثر من هذا.»

فلم يجد السير مورتيمر سوى التوجه نحو الباب وقد تمكن منه الذهول والإرتباك، شاعراً بأنه ربما يكون مخدوعاً.

وعند وصوله إلى الباب، استدار ينظر إلى الإيرل، وكان هذا ما يزال واقفاً امام المدفأة، لم يتكلم، ولكن

عينيه التقتا بعيني السير مورتيمر فشعر هذا الأخير أنه قد هزم.

لقد كان يساوره شعور مبهم بأن عليه ان يتودد إلى هذا الرجل الذي يمكنه ان يتكلم عنه بعد الآن بقوله: «إنه في الواقع، صهري.»

هذا رغم علمه بأن هذا الوقت غير مناسب لذلك، بعد ان ضرب كاريتا بالسوط الذي في يده.

وغادر الغرفة إلى الردهة ومن ثم إلى خارج المنزل حيث ساعده خادمه على الصعود إلى عربته، واثناء ابتعاده، كان يتمتم لنفسه، لقد ضربت كاريتا، وأخذ يتساءل بذعر عن الكيفية التي يقنع بها الإيرل بأنه نادم على فعلته تلك، ولم يستطع أن يجد الجواب لذلك.

الفصل السابع

انتظر الإيرل إلى أن سمع صوت عجلات عربة السير مورتيمر وهي تبتعد.

عند ذلك نظر من النافذة، فرأى المربية في آخر الحديقة.

وكان يبدو أنها لم تنتبه إلى شيء مما حدث.

غادر غرفة الجلوس وصعد السلم متوجهاً إلى حيث غرفة كاريتا.

كانت تبكي وقد بدا على وجهها اليأس، وعندما دخل، رفعت نظراتها إليه.

عند ذلك تمتمت كطفل واقع في ورطة، ثم ركضت إليه وقد بان عليها الذعر.

وقفت وهي تنظر إليه ضارعة، انها تتوقع منه أن يقول لها إن عليها أن تذهب مع زوج أمها.

وكانت هي تحدث نفسها، بأنها ستقتل نفسها... إنها لا تستطيع أن تتصور كيف ستفعل ذلك... ولكنها لا تريد رجلاً آخر غير... دارول... الرجل الذي تحب.

وكان دارول ينظر إلى وجهها الذي تغيرت ملامحه. لم يتصور قط امرأة تبدو بكل هذه البراءة، والعذوبة.

وأدرك أنها قد أصبحت الآن جزءاً منه كما لم تكن امرأة من قبل.

وهو يعلم الآن أن هذا هو الحب.

وأخيراً، قالت بصوت بدا له كتغريد الطيور: «لقد تمنيت، وتمنيت لو انني اراك مرة واحدة قبل أن أرحل عنك.»

فقال بهدوء: «لقد رحل زوج أمك.»

«من دوني؟... هل عليّ أن أتبعه؟»

«لست بحاجة إلى رؤيته بعد الآن.»

فحدقت كاريتا فيه غير مصدقة.

«ماذا تعني؟... لا أفهم... كيف أمكنك أن... تجعله يرحل؟»

فقال ببطء: «لقد رحل لأنني أخبرته أننا، أنا وأنت، قد تزوجنا.»

«وهل... صدقك؟»

«لقد جعلته يصدقني.»

«ولكنه... سيعلم فيما بعد... أن هذا غير صحيح، آه ساعدني. لقد أصبح لديّ الآن وقت للاختباء... أخبرني إلى أين يمكنني الذهاب.»

«انك ستكونين معي في أمان تام.»

فحملقت فيه: «هذا سيكون... رائعا تماماً. ولكن زوج أمي... سيعود، وإذا كنت ما أزل هنا... فهو سيعثر عليّ.»

فعاد يقول: «لقد أخبرته أننا متزوجان.»

«إنها شهامة بالغة منك... أن تقول هذا... ولكنني واثقة من أنه سيقوم بالإستعلام عما إذا كان هذا... صحيحاً.»

فقال الإيرل: «إذن، علينا أن نجعله يعرف أن هذا صحيح وليس كذباً.»

فرأى جسمها يتصلب، ثم تقول بصوت خافت يملأه الخوف: «ما... هذا الذي... تقوله لي...؟»

فأجاب: «إنني أقول، يا عزيزتي انني أحبك وأظنك تحبينني قليلاً.»

«إنني أحبك من كل قلبي... ولكنني لم... لم أظن قط أنك... ستحبني.»

فأجاب: «مع انني أحبك فعلاً، أتظنين أنك ستكونين سعيدة معي بقية حياتك؟»

فأجابت: «إن بقائي معك، ولو لفترة قصيرة، يمثل الأمن والهدوء... بالنسبة إليّ. كنت أفكر بانني... عندما أضطر إلى تركك... سأموت حتماً.»

فقال: «إنك لن تموتي، بل ستعيشين، وأمامنا الكثير من الأشياء التي سنقوم بها معاً.»

فقالت: «إنني... ساعتني بك... وسأبذل جهدي بأن لا يسبب لك أي أحد... أي أذى.»

فابتسم الإيرل: «هذا ما يتبغي ان أقوله أنا لك. وعلى كل حال، إن لدينا، نحن الإثنين، نفس الفكرة، وأظن أننا سنكون سعيدين جداً.»

فتنهدت كاريتا.

«لا بد انني أحلم... لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً.»

فقال: «سنحلم معاً، ولكن علينا أولا، يا عزيزتي، أن نتزوج بأسرع وقت ممكن، فأنا لا أحب أن اكذب، وأيضاً

أريد أن أتأكد من أنه إذا قام زوج أمك بالإستعلام، فسيعلم أنك زوجتي حقاً، وأنه لا يستطيع عمل شيء تجاهنا.»

فسألته: «هل انت واثق... واثق تماماً؟»

فقال: «حالما نتزوج، وذلك سيكون بعد ساعات، فلن تشعري بالخوف بعد ذلك أبداً. والآن، سأذهب للتحدث مع مربيتي بينما ترتاحين أنت إلى أن تأتي إليك لتساعدك على ارتداء ملابس زفافنا.»

فنظرت كاريتا إليه وكأنها لا تفهم تماماً ما يقول، عند ذلك قال لها: «إرتاحي يا حبيبتي.»

وقبل أن تجيبه، كان قد غادر الغرفة.

* * *

نزل الإيرل متجهاً نحو المطبخ حيث كانت المربية تعد العشاء.

وهتفت لرؤيته: «آه، ها أنت ذا قد عدت، يا سيد دارول.»

فأجاب: «لقد عدت حقاً.»

«حسناً، إني أتساءل عما حدث معك.»

فنظر الإيرل إلى حقيبتين كانتا في زاوية من المطبخ.

فقالت المربية: «لقد أحضر ميجور وورد هاتين منذ دقائق قائلاً بأنها تخص السيد دارول. أريد أن أعلم السبب في أنه يدعوك السيد دارول، وكأنه يعرفك منذ كنت طفلاً.»

فضحك الإيرل: «لقد سبق وأخبرتك بأنني مختبىء، وميجور وورد هو الشخص الوحيد، بعدك، الذي يعرف أين اكون.»

فبدا عليها شيء من الهدوء، ولكنها قالت: «إذا كانت هذه ملابسك، فعليك ان ترتبها بنفسك لأنني لا أستطيع أن أعد العشاء، وأساعدك في نفس الوقت.»

فقال باسماً: «ربما سيدهشك ما ستسمعينه. وهو أنني استطيع تماماً ترتيب ملابسي بنفسي.»

فتابعت تقول: «وقال لي الميجور أيضاً إن عليّ، أن أفتح الحقيبة الصغيرة أثناء تناولك العشاء، عند ذلك سأعرف ما عليّ أن أقوم به. ما الذي يعنيه بذلك؟»

فأجاب: «إنه يعني ما قاله بالضبط، وهو يتبع بهذا، تعليماتي له.»

«إنني لا أدري ما الذي يحدث، ما يجعلني لا أعرف رأسي من قدمي.»

فقال الإيرل: «أعدك بأن كل شيء سيتضح لك عندما تفتحين الحقيبة التي ستترك لك.»

ابتسم وهو يرى الفضول في عيني مربيته، ثم حمل الحقيبة الكبرى صاعداً بها إلى حجرته.

وبعد ذلك بقليل، أخذت المربية بعض الماء الحار إلى كاريتا في غرفتها.

كانت مستلقية على سريرها وقد شعت السعادة من وجهها ما جعل أنفاس المربية تتوقف.

قالت: «إذا كنت تريدين تغيير ملابسك للعشاء، يا آنسة كاريتا، فعليك أن تسرعي قبل أن يبرد الطعام.»

فأجابت كاريتا: «نعم. حالاً.»

ونهضت من السرير وابتدأت تخلع ثيابها بينما أخرجت المربية ثوباً أبيض من الخزانة، كانت قد سبق وكوته.

ومع أنه كان بسيطاً جدا إلا أنه كان يبدو على كاريتا بالغ الجمال.

وكانت قد أحضرت معها الحقيبة الصغيرة التي كانت في المطبخ.

وعندما وضعتها على الأرض، سألتها كاريتا.

«ما الذي يوجد في هذه الحقيبة؟»

فأجابت المربية بحدة: «ليس لديّ فكرة، لقد طلب السيد مني أن لا أفتحها إلا وانتما تتناولان العشاء.»

ولم تكد كاريتا تسمع ما كانت تقوله المرأة وهي تقفل لها ازرار ثوبها. فقد كانت تقول: «لشدّ ما أنا سعيدة... سعيدة جداً.»

وكانت لهجتها وهي تتكلم، مختلفة جداً عما عهدتها من قبل.

ونظرت إليها في المرآة ثم قالت: «هل تريدين أن تخبريني بأن السيد دارول قد قال لك شيئاً خاصاً؟»

«إنه يحبني، آه، انه يحبني، وأنا أسعد امرأة في الوجود.»

فهتفت المرأة: «هذا أحسن ما سمعته منذ وقت طويل. وهذا ما هو بحاجة إليه على الدوام، ألا

وهي امرأة مثلك ترعاه وتبعد عنه تلك النسوة القذرات.»

«وهذا ما سأفعله... إنك تعلمين أنني...»

وقبلت المربية على وجنتها.

ثم اندفعت خارجة من الغرفة وكأنها لم تعد تستطيع الابتعاد عن رؤية الرجل الذي تحب.

وكان هو بانتظارها في غرفة الجلوس.

وعندما دخلت ورأته لأول مرة في ثياب المساء، أطلقت شهقة إعجاب لأنها لم تره من قبل بمثل هذه الروعة.

كما أدهشها أن ترى زخارف عدة على صدر سترته.

أخذت تتأمله لحظة، وقد تملكها الذهول، ثم همست تقول: «إني... أحبك.»

فأجاب: «كما أحبك أنا.»

وعندما فتحت المربية الباب لتخبرهما بأن العشاء جاهز، سارا إلى غرفة الطعام معاً.

وكانت المربية قد تركت كل شيء جاهزا لهما.

فكان على المائدة حساء الفطر، كما كان هناك دجاج مطبوخ بطريقة خاصة كان يحبها الإيرل.

ولكن كاريتا، لفرط السعادة، لم تعرف ماذا كانت تأكل.

كل ما كانت تفكر فيه هو أنها على وشك أن تتزوج أجمل وأرق الرجال الذين عرفتهم في حياتها.

وعندما انتهى العشاء، سألته بصوت متردد وكأنها

تشعر بخوف من السؤال: «هل... حقاً... سنتزوج هذه الليلة؟»

فأجاب: «ستصل العربة بعد دقائق. فاصعدي إلى غرفتك وانظري ما الذي أعدته لك المربية.»

فترددت لحظة: «هل أنت... واثق جداً جداً من أن الزواج مني... لن يسبب لك أي... ضرر؟»

فأجاب بحزم: «لا أحد سيسبب لي أو لك أي ضرر. وإذا كنت تلقين أسئلة كهذه، ربما عليّ أنا أن أسألك أيضاً إذا كنت حقاً تريدين الزواج مني ولا تفضلين عليّ ذلك الرجل الغني ذا اللقب الذي اختاره لك زوج أمك.»

فقالت بصوت محترم المشاعر: «سأتزوجك ولو كنت عاملاً في الشوارع أو عاملاً في المنجم، وإذا كان بإمكانك أن تسكن في هذا المنزل الجميل فلن أطلب أي شيء آخر... لأنني، معك، سأكون في أمان.»

فابتسم الإيرل. فهذا ما كان يريده على الدوام، وكان يظن أنه لن يحصل عليه بتاتاً.

فقال: «أسرعي إذن قبل مجيء العربة، لأنني لا أريد أن تنتظر الجياد طويلاً.»

فقالت: «كلا، طبعاً.»

وأسرعت تصعد إلى غرفتها ركضاً، واندفعت داخلة من الباب لتجد المربية في انتظارها.

كان على الفراش أروع نقاب من الدانتيل رأته كاريتا في حياتها.

وكانت المربية تحمل في يدها أكليلاً لتضعه فوقه.

كانت أزهار الأكليل هذا، والمفروض أن تحيط برأسها، مصنوعة من الجواهر.

فصرخت كاريتا: «الآن سأبدو عروساً حقاً. كيف تمكن دارول من التفكير في كل شيء بهذه المهارة.»

فوضعت المربية النقاب ليس فوق الوجه، ولكن على الجانبين بحيث يصل إلى الأرض تقريباً.

وتألقت الجواهر في الإكليل في ضوء المصباح.

عند ذلك تذكرت كاريتا مجوهرات أمها، وفكرت في أن عليها، في يوم عرسها، أن تتحلى بشيء منها.

ولم يستغرق إخراجها الإسورة من حاشية سترة ركوبها، سوى عدة دقائق.

وأخرجت المربية كذلك، حلية من حاشية تلك السترة وهي تهتف: «من الغريب وضعك لهذه الحليّ هنا.»

فقالت كاريتا: «لولا ذلك لسرقها قطاع الطرق. ولكن دارول أنقذنا منهم. لقد كان رائعاً. أتمنى لو كنت أنت موجودة هناك ورأيت كيف ضرب رأسيهما ببعضهما حتى أغمي عليهما.»

فقالت المربية: «عليك أن تخبريني بكل شيء عن هذا الأمر فيما بعد.»

فقالت: «نعم، يجب ألا نجعله ينتظر.»

فقالت: «سأدعو لكما معاً بالسعادة.»

واغرورقت عيناها بالدموع على غير انتظار.

وقالت لكاريتا: «أوصيك بولدي خيراً.»

«إنك تعلمين بأنني سأفعل.»

وقبلتها، ثم أسرعت تهبط السلم.

وفي الخارج، كانت هناك عربة صغيرة مقفلة، أما السائق فكان ميجور وورد.

وكان الإيرل يفكر في حسن تنفيذ هذا لطلبه.

كما كان يعلم، كذلك، أن خذلان الميجور له في الصباح التالي، سيكون من أشد الأمور إزعاجاً.

لقد كان أخبره أنه عندما تناديه اللايدي إيموجين، عليه أن يخبرها بأن هناك عربة ستأتي إليها بعد ساعة.

وهذه العربة ستأخذها وأخويها إلى لندن.

أما السبب الذي يجعلها تغادر فوراً، فهو أن الإيرل سيصل آخر النهار مع زوجته.

وستفهم من هذا أنهما، حيث أنهما قد تزوجا حديثاً، فهما لا يريدان أن يكون لديهما زائرون في المنزل.

فكان أن سأله الميجور: «فلنفترض أنها رفضت الرحيل؟»

«في هذه الحالة يمكنك أن تخبرها بأن رجل الدين قد تثبت من أن الزواج قد حصل. فإذا بقيت على رفضها المغادرة، فاعط تعليمات للخدم بأن يضعوا أمتعتها في العربة، وإذا احتاج الأمر، يضعوا شقيقيها في الداخل بالقوة.»

لقد تنهد الميجور عند ذاك إذ كان يعلم مقدار سوء طباع اللايدي إيموجين في حالة كهذه.

ولكنه كان يدرك أن الحق مع الإيرل.

ففي ظروف كهذه، من المستحيل عليها أن تبقى.

وكان الإيرل واثقاً من أنه من الصعب عليها أن تلفق فضيحة عن هذا الأمر.

ذلك أن طردها من منزله دون سبب معقول قد يثير بالنسبة إليها جواً من العطف في مجتمعها.

أما أن يكون عائداً إلى منزله مع عروسه، فإن ثورة إيموجين وهياجها سيجعل منها أضحوكة.

فهناك عدد كبير من الناس يسرهم أن يروها ذليلة.

وهي تعرف ذلك حتماً.

وكان الإيرل على استعداد لمنحها مبلغاً سخياً من المال عندما تعود إلى لندن.

فقد كان يعرف أن ذلك يضمن صمتها.

وهي ستعثر على الفور على رجل غني وإن لم يكن ذا مركز بارز.

ساعد الماركيز كاريتا على الصعود إلى العربة، ثم جلس بجانبها.

وكان يدرك مقدار البهجة التي تمتلكها، فقال لها: «هذه مغامرة سنتذكرها على الدوام.»

فقالت: «وهل يمكن لنا... أن ننساها؟»

سارا بصمت إلى أن توقفت بهما العربة خلف ما بدا لكاريتا أنه منزل كبير.

وكانت قد انتبهت، أثناء الرحلة، إلى عدم وجود مصباح على العربة.

فقد كان السائق يعتمد على ضوء القمر في طريقه.

ساعدها الإيرل على الخروج، فرأت أمامهما باباً مقوساً قادها الإيرل منه إلى الداخل حيث كان هناك باب آخر رأت أنهما، عندما فتحاه، في قاعة جميلة جداً.

وكانت مضاءة بكثير من الشموع وقد انتشرت الأزهار في جوانبها.

وأمام طاولة، كان يقف رجل الدين في انتظارهما.

وقاد الإيرل كاريتا إلى هناك، ببطء.

وكانت تدرك أن هذه أروع لحظة في حياتها. وكان هو يفكر في أن هذه هي بالضبط أمنيته وهي أن يتزوج امرأة يحبها وتحبه لنفسه فقط.

فلا أصدقاء هنا للإنتقاد أو الغيرة.

وحسب ما كان خطط سلفاً، كان سائس قديم هو موضع ثقته، يمسك بالجياد في الخارج. أما ميجور وورد، فقد كان واقفاً عند باب القاعة.

فقد كان الشاهد الوحيد لزواجهما.

كما أنه كان يحميهما فيما لو حدث تدخل من أولئك الزائرين في قصره.

وتمت مراسم الزواج، عندها جمدا في مكانهما لحظة، ثم استدارا عائدين إلى كوخ الحمام مع ميجور وورد سائقاً للعربة.

كان في الردهة ضوء، ولكن المربية لم تكن هناك.

وأدركت كاريتا أنها تعمدت الذهاب إلى فراشها.

صعدا السلم معاً، ولكن عندما تحولت كاريتا نحو غرفتها، جرها الإيرل إلى غرفته.

ولم تكن قد رأتها من قبل.

رأتها اكبر من الغرفة التي نامت فيها.

وكان السرير واسعاً بأعمدة أربع وقد حفر على سقفه صور الحمام والطيور.

وكان هذا سرير جدة الإيرل الذي كانت أرسلته إلى كوخ الحمام هذا إذ لم يكن له مكان في منزل الأرملة الكونتس.

وكان أجمل سرير رأته كاريتا في حياتها. ولكن عندما أوشكت أن تقول هذا، شعرت فجأة بالخجل.

وقف لحظة يحدق في كاريتا، ثم قال برقة فائقة: «يا زوجتي.»

فسألته: «هل... هذا صحيح؟ آه، يا عزيزي دارول... كم أنا خائفة... من أن يكون هذا... حلماً.»

فقال: «وهذا هو شعوري أيضاً. لقد بحثت عنك وانتظرتك. ولكنني ظننت أنني لن أعثر عليك أبداً.»

* * *

بعد فترة طويلة، همست كاريتا في أذنه: «أحبك... إنني أعلم الآن أن فرط السعادة تعجز الكلمات عن التعبير عنها.»

فأجابها: «وأنا أشعر بنفس الشيء. إن من الصعب أن أدرك مقدار حظي في العثور عليك.»

فضحكت كاريتا وقالت: «ولكنني أنا عثرت عليك عندما كنت غائباً عن الوعي.»

فقال: «عندما فتحت عيني ورأيتك تنظرين إلي، ظننت نفسي في الحلم.»

فقالت: «كيف كان لي أن أعلم... بأنك ستصبح زوجي.»

وفجأة، أطلقت صرخة صغيرة، ثم قالت: «هل تدرك أننا قد تزوجنا، ولكنك لا تعرف إسمي الكامل، كما انني لا أعرف اسمك الكامل.»

فابتسم الإيرل، قائلا: «لقد كنت أتساءل متى ستسألينني هذا السؤال.»

فقالت: «لقد حدث كل شيء بسرعة بالغة... كما أن المربية لم تذكرك إلا باسم السيد دارول. وهكذا، أظنني نسيت أن لا بد لك من إسم آخر.»

فقال: «لماذا لا تخبرينني باسمك أولا. ثم إن علينا غداً أن نذكر إسمينا الكاملين في وثيقة الزواج، وذلك في حالة أراد زوج أمك أو غيره رؤيتها.»

فسألته: «إن رجل الدين لم يصرّ على أن نملأها هذه الليلة.»

فقال: «لقد اكدت له بأننا سنملأها غداً وبما أنه يحبني، فقد وافق على ذلك.»

فحملقت فيه بدهشة وسألته: «يحبك؟»

فأجاب: «نعم، لقد تزوجنا في قاعة خاصة والتي هي جزء من قصر برايوري، والذي هو قصري.»

وساد صمت كانت فيه كاريتا تستوعب ما سمعت. ثم سألته بتردد: «إذن... فانت لا... تسكن هنا...؟»

«إن كوخ الحمام هو من أملاكي ولكن أقاربي يسكنون فيه. على كل حال، اتمنى يا عزيزتي، أنك ستحبين منزلي الحقيقي بقدر ما أحبه أنا.»

وشعر بكاريتا وكأنها خائفة، ثم قالت: «كنت أظنك... فقيراً، ليمكننا من العيش هنا... والاعتناء بك.»

فقال: «إن عليك أن تعتني بي حيثما نكون. إنني، في الواقع، الإيرل أوف كالفنديل. وقصر كالفين برايوري هو أحد أجمل وأقدم المنازل في المنطقة.»

ومرة أخرى، ساد الصمت.

ثم قالت: «ربما ما كان لك... أن تتزوجني، وإنما فتاة أخرى... ذات أهمية اجتماعية.»

فقال: «لقد تزوجت تلك التي أحبها من كل قلبي. وأهم من كل شيء آخر، هو أنني أعتقد أنها تحبني.»

فقالت: «آه، إنني أحبك... أحبك. ولكن، يا حبيبي، أفرض أنني، حيث أنك رفيع المقام، قد خيبت أملك، فتندم لأنك لم تتزوج من... فتاة أخرى...»

فضحك برقة بالغة، وقال: «ها إن تواضعك هذا سخيف تماماً، صدقيني يا كاريتا انني لم أر فتاة أجمل منك قط، كما أنني لم أشعر مع فتاة أخرى بمثل السعادة التي أشعر بها معك.»

«هل هذا... صحيح... حقاً؟»

«إني أقسم لك بأنها الحقيقة، ثم أنك كنت قلت يا حبيبتي، انه ليس الحجارة والقرميد تصنع البيت، بل الحب في داخله.»

فهمست قائلة: «سنملأ ذلك البيت الكبير... بكثير من الحب حتى لا يعود شيء سواه... مهماً.»

وفهم الإيرل أن هذا هو وعد منها.

وكان هذا ما كان يريد سماعه ويتوق إليه، وهو شيء لا يريد أن يفقده بتاتاً.

ولكن خوفه كان فقط من أقربائه الذين كانوا، أحياناً، متشددين للغاية، وذلك بأن يفكروا في أن كاريتا لا تليق به اجتماعياً.

وفكر في أن زوج أمها هو رجل مخيف حقاً، وتمنى

ألا يتصل به أحد من أعمامه أو أخواله، أو أولادهم.

ولكنه كان يحب كاريتا من كل قلبه، أما من هما أبواها، فهذا غير مهم بالنسبة إليه.

ومع هذا، فهنالك العالم الخارجي الذي عليهما أن يواجهاه يوماً ما.

فهو، وكذلك كاريتا، سوف يعقدان الإجتماعات المعتادة في القصر.

وسألها برقة: «والآن، وقد علمت من أكون، أخبريني عن هويتك الحقيقية التي ما زالت سراً حتى الآن.»

فقالت: «ذلك فقط لأنني كنت مختبئة من زوج أمي. لقد كان أبي الكابتن ريتشارد وينسلي.»

فقال: «أظنني أعرف الإسم. من الغريب أن أقرباءك قليلون، ما عدا عمك الذي كنت ذاهبة إليه في نورفولك.»

فأجابت: «كنت خائفة من أن... يرفضني، ولكنه أصبح كبير العائلة عند أخذ اللقب.»

فجمد الإيرل في مكانه.

ثم سألها: «اللقب؟»

«نعم. إن عمي أندرو هو الآن اللورد وينسلي أوف وين، واللقب يعود الى القرن السابع عشر.»

فأغمض الإيرل عينيه.

إنه يعلم الآن من المستحيل على أقربائه أن ينتقدوا زواجه من كاريتا.

ومرة أخرى، لم يتخلّ عنه الحظ.

فهو اكثر الرجال الذين ابتسم لهم الحظ. نظر إليها وهو

يقول: «والآن، بعد أن تعارفنا رسمياً، هل لي أن أخبرك، يا زوجتي الصغيرة الرائعة، أن حبي لك لا يمكن أن يوصف، وهو سيدوم إلى آخر حياتنا.»

فهمست: «وهذا ما أريد أن أقوله لك أنا أيضاً ولكن، يا حبيبي، حيث أن بيتك كبير جداً، فأنا أريد أن أملأه... بأولادنا. أريد أولاً، ابناً لكي تربيه مربيتك... والذي سيكون مثلك تماما، وسيماً، ذكياً، ورقيقاً جداً جداً.»

ضحك الإيرل هو يومىء برأسه بالايجاب.

تـمت

الهاربان

عندما توفيت والدة كاريتا، أعلن زوج أمها أنه سيزوجها من اللورد ستلبري العجوز القاسي. وكان الهرب هو خيارها الوحيد، وأثناء هربها ممتطية حصانها، باحثة عن مكان تبيت فيه الليل، رأت رجلاً غريباً يسقط عن ظهر حصانه، ثم يستلقي على الأرض فاقد الوعي.

وافترض أصحاب المزرعة الذين منحاهما المأوى، أنهما زوج وزوجة. ولكن عندما عاد وعي الغريب إليه، علمت كاريتا أنه، هو أيضاً، هارب من زواج لم يفكر قط في القيام به.